غدا أزورك

غدا أزورك

عادل إبراهيم علي

ر. د. م. ك : ISBN: 978-9973-62-641-7

عليسة للنشر والتوزيع

المقر الإجتماعي

17 شارع علي بلهوان بلوك ب الطابق الثاني 2078 - المرسى - تونس

العنوان التجاري

تونس - سنتر البلماريوم - تونس 1000

00 216 28 102 103

etablissement. alyssa@gmail. com

المطبعة

المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب

22، نهج المقاولين – المنطقة الصناعية الشرقية – أريانة – تونس
الهاتف : 683 837 70 216+ – الفاكس : 975 838 70 216+

السحب : 1000 نسخة

الطبعة الأولى 2021

التصميم الفني : صفاء سعيد

ثمن النسخة في تونس : 12,000 د. ت

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 2021.

عادل إبراهيم علي

غدا أزورك

رواية

عيسة للنشر

الفصل الأول

1

«غدا أزورك، فكن مستعدّا.»

قالها ومضى. بينما راح جمعة يسبح في تفكير طويل على امتداد مساره في ذلك الشارع الفارغ... من جهة هو لم يعرف الرّجل الغريب، ومن جهة ثانية لم يعرف سبب الزيارة حتّى.

«كيف يدعو نفسه لزيارتي دون استئذان على الأقلّ؟ وكيف يسمح لنفسه بذلك وهو رجل صاحب كرامة؟ ثم من هو؟ ولماذا لم يخبرني بسبب الزيارة؟ يزورني!! بأيّة مناسبة؟ أنا لا أعرفه... لم ألتق به من قبل. فما الدّاعي لزيارتي إذن؟»

هكذا فكّر بصوت مسموع كمجنون يهذي في شارع خالٍ. وأجال بصره فيه باحثا عمّا تعوّد أن يراه؛ سيّارات مجنونة تمرّ سريعا، سيّارات أخرى مركونة على الجانبين، مقاهي مكتظّة يملأ فضاءها الدّخان، ورصيف مكتظّ بالمارّة...

هذا الصباح أصابته دهشة. بدا الشارع فارغا. الحركة منعدمة، السيارات اختفت، وبالمقهى التي وقف أمام أبوابها أنفار قليلون منعزلون في بؤس... خمسة أنفار فقط جلسوا بمحاذاة الكونتوار وقد التفّوا حول أنفسهم بشكل حميميّ.

«ها هي ذي فرصة لتغيير المزاج.»

قالها وجلس في الفضاء الخارجيّ للمقهى. ولمّا طال جلوسه قليلا دون أن يتقدّم نحوه النادل، قام مستاءً ومضى إلى الدّاخل حيث ذلك النّادل معتكف وراء الكونتوار يمسح الكؤوس بمنديله في سأم.

«أريد قهوة سوداء تسبح داخلها قطعة واحدة من السكّر إلى أن تذوب.»

قالها دون انزعاج ودون حماس.

«يبدو أنّك رجل شجاع... شجاع وشاعريّ.»

ردّ النادل وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، بينما راح يعدّ القهوة لحريفه.

«الأمر لا يتطلّب شجاعة... والشاعريّة لتخفيف التوتّر بيننا ليس إلّا.»

قالها في حياد، دون أن يبتسم حتّى، وألقى قطعة نقديّة على الكونتوار، فيما كان النّادل يُناوله قهوته فأخذها وعاد إلى مكانه في الفضاء الخارجيّ...

الطقس جميل يعجبه، لذلك فقد ملأه بهجة وأغرقه في التّأمّلات. غيوم بلون داكن، ومطر محبوس، ونسيم متوسّط البرودة.

قال في نفسه: «هذا جميل ومنعش.» وتنفّس عميقا كأنّه يتنهّد، ثم ارتشف من قهوته كثيرا بتلذّذ. وعاد يفكّر بالزائر الغريب، ذلك الذي اقتحمه قبل نحو ساعة تقريبا...

عجوز يتوكّأ على عصا، وليس بغريب أن يتوكّأ عجوز على عصا... يرتدي بذلة إفرنجيّة، جعل شحم ردفيه وفخذيه سروالها ينحصر إلى فوق كعبيه بمقدار شبر. ولم تسمح بطنه الممتدّة أمامه كبالون كبير لزرّ سترته الثاني أن يلج ثقبه...

تقدّم العجوز بخطوات بطيئة متوكّئا ومتأبّطا صحيفة إلى الركن الأيسر للفضاء الخارجيّ، وجلس، بينما كان جمعة يجلس في الركن الأيمن.

سرعان ما أقبل النّادل نحو طاولة العجوز ينظّفها بمنديله، مبتسما له في مجاملة متصنّعة وبغيضة، قبل أن ينصرف سريعا عائدا بقهوة وشيشة[1]، وضعهما في حضرة العجوز.

«المحاباة تغزو المقاهي أيضا، والذي يدفع يُبجّل.» قال جمعة في نفسه، عائدا إلى تأمّلاته وتيهه الممتع. وبينما كان جمعة يلقي بصره في الأفق البعيد، كان ذلك العجوز يراقبه ويطيل النظر في وجهه. ثم نطق فجأة كأن لم يعد يطيق صبرا.

- لا تقلق، سيمرّ الأمر على خير.

لم يفهم جمعة إلى ماذا يرمي العجوز، وزادت حيرته وسط غرائبيّة أحداث يوم عصيب. كان يعتقد أنّ يوم عطلته الأسبوعيّة سيمرّ بسلام كتلك الأيام الطويلة المتكرّرة التي أمضاها سابقا لاهيا ولاعبا، مرتاحا ومستمتعا بأجواء لطيفة تصنعها عاداته البغيضة التي سُجن في أفيون خيوطها منذ زمن...

1 - غليون تركي طويل للتدخين، يُمتصّ دخان التبغ من خلال خرطوم طويل مغروس في قنينة ماء، بينما توضع كتلة التبغ في رأس الغليون، وهي التي تسمى النارجيله في المشرق العربي.

التفت نحو العجوز مسكونا بالحيرة، تلك الحيرة التي فاضت على ملامح وجهه الأسمر...

- لا تقلق، سيمرّ الأمر على خير

أعاد العجوز كلامه، وأردفه بابتسامة لذيذة... غير أنّ جمعة رأى في تلك الابتسامة استفزازا وبلاهة. بدا له العجوز مثل أبله يحسن استفزاز غيره بعفويّته البغيضة تلك التي تظهرمن خلال أفعاله الصغيرة غير المقصودة... لم يجد جمعة ما يقوله، تاهت نظراته وتفكيره في وجه العجوز، أدار رقبته ناظرا إلى الأمام.

«ما بال هذا العجوز الأبله؟ وإلى ماذا يرمي بكلامه؟»

فكّر جمعة قليلا... «ربّما كُشفت أسراري ولم أعد أنعم بالخصوصيّة... أيّنا مازال ينعم بالخصوصيّة في هذا الزمان؟! من فضح أسراري؟ أرئيسي في العمل؟ ربّما... إنّه رجل ثرثار، لا يتوانى عن الحديث في الأسرار... يمشي لسانه معه كما يقول المثل... ألا تذكر كيف فُضح حبيب المرتشي جرّاء ثرثرة المدير، رغم أنّ الحبيب أسكته ببعض الهدايا ونسبة لا يُستهان بها من المال الذي قبضه آخر مرّة. ووعده المدير بالسكوت والتّغاضي شريطة أن لا يورّطه. ثمّ راح يحدّث الناس بلهجة الرّجل صاحب المروءة...

- سكتُّ عن الأمر من أجل عياله، غضضت الطّرف لكنّي نهرته وقرّعته طويلا... حذّرته من العودة لهذا الفعل الذي ينخر الدولة ويضيع مصالح العباد...

وكان كلّما فُتح بين الأصحاب موضوع الفساد وكان المدير حاضرا، صدح بلهجة الحكيم العارف:

- الفساد منتشر من الأسفل إلى الأعلى ومن الأعلى إلى الأسفل، بين موظفين صغار فاسدون لا يقلّون خطورة عن الكبار. حبيب مثلا مسكته متلبّسا ومرتشيا...

ثمّ يستدرك ويقول:

- كلّنا فاسدون...

أتراه بعد هذا يسكت عن خطئك يا جمعة وهو أكبر من الرشوة؟

لا لا، المدير أذكى من ذلك. لن يفضح تورّطه ثانية. ثمّ إنّه يحبّني، يحبّني كابن له!! لقد قالها أكثر من مرّة حين يعنّ له إبداء الإعجاب بي...

لم يبق إذن غير ثرثرة النساء... ربّما فضحت زوجتي أسراري وخبّرت النّاس عن عشيقتي التي زارتها آخر مرّة في بيتنا لتفضحني انتقاما منّي حين عزمت على الخلاص منها... يحقّ لي الخلاص منها، فهي رغم قوامها الأوروبي وعطرها الباريسي، وشعرها الأحمر (ربّما يكون ذلك مجرّد صبغ يتجدّد على الدّوام)، ورغم حلاوة حبّها الذي لا يُشبع منه وأجده دائما لذيذا في قلبي... رغم كلّ ذلك فهي تهدّد حياتي المستقرّة بالخراب...»

- إنّهم يتداولون الخبر كثيرا على صفحات الجرائد، وفي مواقع الأنترنت، وحتى على شاشات التلفزيون العاهرة. وهذا ما يجعل النّاس قلقة...

أضاف العجوز وهو يقلّب صحيفته، ثمّ يمزّ من شيشته لينفخ في وجه جمعة الذي استدار نحوه مملوءًا بالتساؤل والضجر...

- لكن لا يجدر بك القلق... أنا عجوز ومرّ على رأسي الكثير. هذه الأحداث ليست شيئا...

قال العجوز يطمئن جمعة وهو يلمح حيرته وضجره، ظنّا منه أنّ جمعة فزع وقلق...

- أخيرا، قال جمعة ضجرا: لماذا يتعيّن عليّ أن أقلق؟

- لا يتعيّن عليك أن تقلق... أنا أطمئنك بحكم خبرتي وشيبتي... لا تكن قلقا ولا فزعا.

ستكون الأمور على ما يرام...

- ما الذي سيكون على ما يرام؟ أنا لا أفهمك!!

حدجه العجوز بنظرة فاحصة مستغربة.

- لم يكفّوا عن نشر الخبر منذ أسابيع...

قالها وعاد ليمزّ من شيشته، ملقيا الصحيفة على الطاولة.

«هذا رجل مجنون.» قال جمعة عائدا إلى قهوته وتأمّلاته. هذا الطّقس يغريه بالتفكير الطويل في اللاشيء... اللاشيء

بالنسبة لجمعة هو أن يتوه خلف أفكار كثيرة بلا معنى وبلا نسق وبلا فائدة أيضا. لكنّها ممتعة، تحتفظ دائما بطاقة سحريّة خاصّة، تعدّل مزاجه وتهدّئ خواطره...

- قال العجوز: يقولون إنّ القاتل يخبر ضحاياه كي يستعدّوا لزيارته قبل مجيئه وتنفيذ حكمه...

فالتفت جمعة ناحيته ممتقع الوجه وقد تسارعت نبضات قلبه. بينما أضاف العجوز: «ولكنّهم لا يبالون بذلك... يعتبرونه حدثا عاديّا ومضحكا، من هذا الأبله الذي سيصدّق رجلا يقول له سآتي في الغد لقتلك فكن مستعدّا؟! لكن الأمر يصدق... تصوّر!!»

قال العجوز كلمته الأخيرة بلهجة ساخرة، وحدج جمعة التائه بنظرة حادّة مخيفة، أعقبها ابتسامة لا يُفهم مغزاها. بينما كان وجه جمعة ممتقعا تملأه الدهشة والفزع، وتلهّى العجوز بأنفاس دخانه يجذبها وينفثها هادئا في زهو، ناظرا إلى الأمام ومشيحا بوجهه عن جمعة، ذلك الذي وقع فريسة للتأويلات والأوهام.

«يقولون إنّ القاتل يخبر ضحاياه كي يستعدّوا لزيارته»

تردّدت جملة العجوز في نفس جمعة وظلّت تسبح داخل خلايا دماغه. فتاه خلف التأويل والتفسير...

«لقد قالها صراحة كما وصف العجوز، غدا أزورك فكن مستعدّا! أيّ نوع من الاستعداد يقصد؟ الاستعداد لمواجهة

الموت؟ كيف يتعيّن عليّ الاستعداد للموت؟! أبشبع أخير أختاره جزافا من ملذّات الحياة؟ أم بصلاة سريعة ودعاء خفيف قبل تلقّي طعنة قاتلة؟ أم بتوديع الناس وطلب عفوهم عمّا مضى لترك سيرة حسنة وأنا أقطع تأشيرة العبور إلى العالم الآخر!! بمناسبة الطعنة والتأشيرة، ترى أيّة طريقة اختارها القاتل لتصفية ضحاياه؟! !

لكن لماذا أسلّم أنّي من ضحاياه؟ يعيش ببلدنا ملايين غيري، فلماذا أكون أنا سيّء الحظّ من بينهم؟! !هل حقّا يبدو الرّجل المنذور بالقتل أو الموت سيّء الحظّ؟ أليس حسن الحظّ من وجهة نظر أخرى!! أذكر أنّ أحد المثقّفين خبّرني يوما أنّ الدنيا دار شقاء وعقوبة بينما تنتظرنا الرّاحة الأبديّة عندما نموت!!على كلّ حال، ما يهمّني هو أن أحيا، وأن أدفع كلّ شيء في سبيل أن تطول مدّة بقائي. ألم يقل صديقي مدرّس الفلسفة إنّ الإنسان محكوم بغريزة البقاء؟ لكن أيّة حياة هذه التي تريدها أن تطول يا جمعة؟ حياة العبوديّة لملاليم الوظيفة؟ تلك التي يحسدك عليها الناس بينما تلاقي أنت الإحباط والإهانات على الدّوام من أجل أن تستمرّ واقفا فيها؟ تلك الحياة المفرغة من المعنى ومن اللّذة؟! ! أم حياة الجري وراء شهوات زوجتك القبيحة ومتطلبات أبنائها التي لا تنتهي؟! !

«أولادك أنت، لم آت بهم معي في «الجهاز».

تذكّر قول زوجته كلّما اختلفا فابتسم. كثيرا ما اختلفا منذ تزوّجا، وكانت مساحة التّفاهم ولحظات الأنس قليلة جدّا...

ربّما كلّما غضّ جمعة الطّرف عن قبح وجهها ومشاعر اللااحتمال التي كان يجدها في قلبه تجاهها... وكلّما انفتح على رغبة في الإيلاج دون لعب كثير مرهق!!

«لكن كيف أتصرّف الآن؟ فمهما يكن، ثمّة خطر عليّ مواجهته بشجاعة كي أنجو.»

قال جمعة في نفسه، وقد أخذ يفرك أصابعه وهو متوتّر. قام من مجلسه ضجِرا، وانطلق سريعا تاركا عجوزه لتيهه...

2

على عتبات بيته تراءت له آثار دم، دم طازج أقنى، فأكل قلبه الرّعب.

أليست هذه علامة أخرى يا جمعة؟ السفّاح بات قريبا منك وعلى وشك الانقضاض عليك ليفنيك... ربّما لو اتّسع له الوقت قطّعك إربا إربا، ربّما يحرق تلك القطع أو يرميها في الزّبالة!! هل فكّرت يوما أنّ نهايتك إلى المزبلة يا جمعة؟

وما المشكلة لو انتهيت ملقيّا في الزّبالة؟ ألم تسمع رجل النقابة يصدح في الوجوه غاضبا: «الحمقى الذين يبيعون أوطانهم، يمضون إلى مزبلة التاريخ!» فكم مرّة بعت ،كنت أحمق، يا جمعة؟ أم أنّك أقلّ نذالة ممّن سبقوك فلا تُرمى إلى المزبلة... كم مرّة قبضت رشوة؟ كم مرّة أمضيت على الخراب؟ كم مرّة تهاونت؟ كم مرّة سكتّ؟

اعترفت أخيرا أنّك نذل... لكن هاهو وطن يليق بالأنذال يا جمعة... الوطن الذي تنبت من عفن جراحه الجريمة، ويغيب فيه القوت، ويغيب فيه أماننا الشخصيّ لا يستحقّ رجالا يا جمعة. إذن كن فخورا بنذالتك في زمن صرنا فيه غرباء في الوطن...

رغم هذا التفكير الطويل والفلسفة البغيضة، ظلّ قلب جمعة مخطوفا وعقله شاردا تائها، قبل أن ينتهي إلى قراره

الاحترازيّ... أخرج المفتاح وأداره في مزلاج الباب فإذا هو موارب، يكاد ينفخ في وجهه ريح الخريف فيغدو مفتوحا على مصراعيه... ربّما...

«ربّما تركت زوجتي الباب مُواربا فرحا بعودتي، وتجنّبا لإرهاقي.»

قال جمعة ذلك في ما بينه وبين نفسه، محاولا طمأنة نفسه المضطربة. ودلف بحذر إلى أركان بيته، يتلمّس الجدران بيمناه كأنّما يودّعها، أو يأخذه حنين الغريب العائد وقد هدّه الشّوق. الصمت يعمّ بيته، فلا صراخ لزوجة بائسة ذهب الأطفال بعقلها، ولا لهو لصغار تعوّدوا أن يملأوا البيت ضجيجا وحركة. هاهنا اهتزّ جمعة، وخطر بقلبه خاطر مزعج مرعب دكّ أركان قلبه الهوائيّ...

«السفّاح يقتحم بيتي، لا يجدني فيغتصب زوجتي على مرأى أطفالها، ثمّ يُقطّع اللحم المشدود إلى العظم والرّوح قطعا يكوّمها فوق بعضها ويرحل عن بيتي مزهوّا... أظنّني سمعت شيئا مثل هذا يحدث في بلدي دون حساب أو عقاب أو إجراء لمنع مثيله من الوقوع ثانية، وتمرّ الأخبار مرّ السّحاب...»

هكذا فكّر جمعة سريعا، بينما كان يخطو بحذر إلى الداخل حيث الغرف والمطبخ والحمّام بحثا عن الجثث واللّحم المكوّم... جال بطيئا ثم سريعا ولم يجد شيئا غير أدباش بيته المرتّب بعناية النبيهة زوجته، فاطمأنّ قلبه لمّا علم حدسا أنّ زوجته وأبناءه الأربعة على أحسن ما يرام وأنّهم غادروا

البيت جميعا تماما كهجرة سريّة جماعيّة إلى بلد بعيد لا يطاردنا فيه خوفنا...

لمّا انسحب إلى الصالون، وجلس على الأريكة ممدّدا ساقيه، سامحا لهما بالاسترخاء أخيرا، تراءت له سريعاورقة مطويّة أعلى التلفاز.

قال جمعة: «هاهي ذي رسالة.»

وقفز من مجلسه كالذي يخزه وخز أو ينفتح على سرّ. منذ زمن طويل لم تنفتح على رسالة يا جمعة، منذ أن أعمت عيوننا الصور، وأتلفت مقاطع الفيديو ذاكراتنا، منذ أن تحوّلنا إلى كتل غباء بلا قيم ولا قيمة في حضرة قصديرنا الذكيّ...

تناول الورقة فجالت ذاكرته سريعا قبل أن يفتحها. ربّما هي تهديد ابتزازيّ من الزائر المجهول، وربّما هي إعلام باختطاف زوجته وأبنائه، كأن يقول الكاتب: «زوجتك في أمان معنا لكن عليك أن تسرع إلينا بالمجيء مصحوبا بالمبلغ، فقد لا نتمالك أنفسنا أمام جوعنا الوحشيّ. الإمضاء صديقكم روبن هود!!»

«كم يساوي المبلغ المطلوب يا ترى؟ بل كم تساوي زوجتي؟ ربّما يكون مدير عصابة مثل روبن هود، لا سفّاحا وحيدا.»

قال جمعة مبتسما ابتسامة صفراء، بعد أن غلب عليه الهوس والخوف فلم تطاوعه شفتاه ولا نفسه تبسّما.

«عزيزي جمعة، لا أريد أن أثير الرعب في قلبك الطيّب، لكن صدّقني إذ أقول أنّي غير مرتاحة ليومي هذا... لم ألحظ

شيئا ذا قيمة يحدث. ومع ذلك غزاني شعور بالخوف والوحشة. هزّتني رعدة شديدة حين كنت وحيدة، تصوّر أن الأطفال أطفالنا زهدوا في اللّعب، وانتحى كلّ منهم ركنا لينزوي منكفئا وحيدا... تساءلت عن سرّ تلك الوحشة التي سكنتنا جميعا في وقت واحد، ناديت الأطفال أطفالنا بأسمائهم الزكيّة التي حرصت أنا وأنت أن تكون فريدة ولا تشبه شيئا أو اسما من أسماء أبناء جيلهم، ناديتهم ودعوتهم للجلوس جميعا في حضرة التلفاز تلفازنا، أتعرف ماذا حدث؟ أجابوني جميعا بصوت واحد، وكلام واحد كأنّما أجراه الله على ألسنتهم؛ لا نريد ماما، نريد مغادرة البيت فورا، عرفت أنّه ثمّة سرّ خفيّ عنّا... كانت إجابتي سريعة؛ هلمّوا يا أولادي نمضي. وهكذا مضينا يا جمعة إلى بيتنا الكبير حيث تُزاح عن قلوبنا الوحشة والخوف، أقصد بيت أمّي ،أنت تعرف أنّها امرأة وحيدة، لكنّ بيتها دافئ بشيء ما تحبّه الرّوح... إذا أقبلت فكن حذرا من تلك الوحشة التي لابدّ ستلقاك، وممّا تخفيه الحياة عنك، وعلى كلّ فقد أوصدت الباب جيّدا، يمكنك فتحه بالمفتاح الذي لا يغادر جيبك. تحيّاتي، زوجتك نبيهة...»

بات الأمر خطيرا بانفتاح زوجته على إنذار روحي... ثمّة دائما ما يرافقنا ولا نفهمه، إحساسنا بالضيق المفاجئ دونما سبب، فقداننا شهيّتنا، توقّعنا السيّئ، ارتباكنا المباغت في لحظات السّلام، الرغبة في الهروب من المكان والأحداث والحياة... كلّها أشياء غامضة ننفتح عليها في حضرة اللا مفسّر فجأة... هكذا فكّر جمعة سريعا، مستحضرا في ذاكرته أحوالا من هذا النّوع؛ حزن أمّه المفاجئ قبل أن تنفتح على

فجيعة هلاك والده بنوبة قلبيّة، الضيق والإحساس بالمرارة الذان كان عليهما صديقه في العمل قبل أن يلقى حتفه في حادث سير. «لن تراني بعد هذه الساعة أبدا.» قول أخير لعمّه حينما التقيا صدفة في السوق قبل أن يجدوه ميّتا في فراشه صباح الغد...

«ثمّة أمور لا نفهمها كثيرا، لكنّها صادقة بمقياس التّجربة. اعتناق أطفالي للكآبة فجأة مثلا، أليس الأطفال أكثرنا روحانيّة؟»

قال جمعة ذلك مستبطنا أخيرا خطرا أكيدا، وأضاف يحاور نفسه: «تدّعي زوجتي إحكامها غلق الباب، ها إنّني وجدته مفتوحا. وهذا يعني أنّه ثمّة من فتحه بعدها بلا شكٍّ. ولم تذكر رسالتها شيئا بخصوص قطرات الدم. هل يعني هذا غير صدق مخاوفي وصدق نبوءة العجوز؟ الزائر الغامض صاحب السرّ يقيم طقوسه حولي قبل الانقضاض عليّ وتقديمي كقربان أبله؛ يُسيل الدم، يفتح باب بيتي ثم يتركه مواربا، ثمّ المجهول يا جمعة!! من قال إنّه لا يراقبني؟ من قال إنّ هذا العدوّ اللّامرئي لا يملك خطّة دقيقة ومحكمة؟ إنّه الخوف يا جمعة... أنت تواجه عدوّا لا مرئيّا لا يرتجل خطواته، بل يتقن ما يفعله ويُخضعه للحسابات!!عليك أن تتصرّف يا جمعة قبل أن تغدو ذكرى جميلة لمواطن من الدرجة العاشرة!!»

تاه جمعة خلف أفكاره برهة وفغر فاه مستلبا ثم هتف فجأة بصوت مسموع: «فزّاع... فزّاع.» وبسرعة خطا نحو غرفة النوم يريد جمع ما خفّ ولزم من أدباشه. أنزل الحقيبة الصغيرة ذات

العجلات، فتحها وأخذ يملؤها بما عنّ له اختياره من ملابسه؛ بيجامة النّوم، ملابس داخليّة، سروال الدجينز الأزرق، معطفه اليتيم. ثمّ توقّف فجأة...

«ليس ذلك بحلّ ناجع.» قال جمعة مغادرا الغرفة وتاركا حقيبته على حالها مفتوحة ومهملة. تقدّم نحو الرّكن الأيمن لشقّته، في الركن الأيمن لشقّة جمعة درجات قليلة تقود إلى الأسفل حيث القبو صغير الحجم، ولأنّه نادر الوجود وبلا مثيل في شقق مدينته، فإنّ زوجته لم تدر ما تصنع فيه بداية، غير أنّها اهتدت أخيرا لجعله مكانا مهملا للأشياء القديمة عديمة النّفع... انحنى جمعة نازلا الدّرجات بحذر متناه، فقد خمّن على سبيل الاحتمال الجادّ أن يكون زائره الغريب الغامض مختبئا داخل قبوه المظلم! لا يدري لماذا خمّن ذلك، لكنّه يحاول الإحاطة بكلّ الاحتمالات الممكنة، ومن يدري؟ وإلّا ففيم يُترك الباب مفتوحا أو مواربا؟! يفكّر جمعة بالقبو أيضا فيم بناه صاحب الشّقة؟ وما الغاية من ذلك؟ يتساءل جمعة بغباء من ينسى التّاريخ؛ هل بنيت شقّتنا المُسْتأجرة زمن الحرب أم توقّع صاحبها وقوع حرب؟!

حال وصوله الحذر، تفقّد جمعة جيوبه بحثا عن هاتفه النّقّال، فوجده بعد تحسّسٍ كثير وتوتّر، أخرجه، ضغط زرّ اللمبة فأضيء المكان بإضاءة ضعيفة خافتة تميل إلى الذبول... تراءت له بعض الأشياء مخيفة في زوايا القبو بينما كان يجيل عينيه وضوءه بحثا عن سفّاح مختبئ بينها... رؤوس ضخمة ووجوه بملامح بشعة...

«ليست إلّا أوهام التخييل يا جمعة، وما تزال هناك فرصة...»
قال جمعة مطمئنا نفسه وطاردا أفكارا ووساوس سكنته. ثم أخذ يبحث بين الأشياء المتروكة المهملة عن لباس غريب ونادر يتنكّر فيه فلا يُعرف!!

الأشياء كثيرة، مكوّمة في كلّ مكان ومبعثرة على امتداد مساحة القبو الصغيرة. أدباش أطفال، ملابس نسائيّة، راديو قديم، تلفاز مكسور يفتح بطنه كأحشاء الأضحية، وقطع من المعدن عديمة النّفع والمعنى، ثمّ أخيرا تراءت ملابس جمعة القديمة وعليه ربّما أن يختار من بينها ما يناسب هيئته الجديدة!!

«تلك الأدباش أيضا لا تنفع. ما الفرق بين سروال الدجينز الجديد والسروال القماشيّ الملقى داخل هذا القبو البغيض؟! أحتاج إذن إلى لباس ريفيّ يناسب فلّاحا، وبتلك الطّريقة لن يعرف أحد أنّي الموظّف جمعة!! إذن لأبحث بين هذه الأكوام عن آثار والدي الفلّاح... أعتقد أنّي خبّأت بنفسي برنسه البنيّ هنا بعد أن صار تعليقه بحامل الملابس في غرفة النوم يزعج نبيهة زوجتي...»

وبينما راح يبحث عن البرنس، تذكّر أنّ رجال العصابات هؤلاء أذكياء كما رجال المخابرات، وإذن فليس من الصّعب الانتباه إلى حيلة الموظّف الذي ينقلب فجأة إلى فلّاح تقيّة... ودونما تفكير خطرت بباله فكرة جديدة سرعان ما نفّذها...

ببطء وخطوات حذرة تجاوز عتبة الباب إلى الخارج، ماذا يقول الناس لو رأوك بهذه الثّياب الغريبة؟ وهم حتما مُشاهدوك.

ففي الخارج خلق كثير لا شغل له غير رصد حركات الذاهبين، يرصدون تفاصيلهم الدقيقة بشكل احترافيّ، وهل لهم من حرفة غير المراقبة والتحليل والحكم؟! مقدار الضوء الذي يشعّ من البشرة، لون العينين، شكل الأنف، درجة انتفاخ الشفاه، درجة التصاقها أو ارتفاعها عن فكّ الأسنان، شكل الأسنان، هل تبدو متّسقة جميلة أم مبعثرة قبيحة؟ بيضاء نظيفة أم صفراء وسوداء نخرة؟ ثمّ الرقبة؛ أهي مليئة كرقبة العجل السّمين، أم دقيقة كرقبة غزال جلدها ناعم ؟ ثمّ الصّدر ودرجة امتلائه فالأرداف والحزام وصولا إلى الأقدام... وبعد المراقبة والتحليل يكون الحكم، الأحكام لا تخرج عن ثلاثة؛ استحسان وقبول أو نفور وسخرية أو حسد وبغض...

إذا كنت رجلا فاطمئنّ، عرضك على السكانار لن يتجاوز ثواني معدودة ثم تتسلّم نتيجة تحليلك وتُسقط سريعا من اهتمام القوم وعيونهم، أما إذا كان المارّ امرأة فيا للكارثة!! تلك المرأة ستأكلها العيون والألسن ما دامت تعبر المجال الجويّ للراصدين!! ومن سوء حظّ جمعة أنّه كان في تلك اللحظات الاستثنائيّة العصيبة امرأة!!

3

جلباب أسود واسع، وحذاء نسائيّ أحمر، وخمار يغطّي شعره. ولأنّ لحيته كانت خفيفة والوقت يضيق فلا يتّسع لحلقها، وتجنّبا لتدقيق المتطفّلين الذين توقّع جمعة أن يلتهموا وجهه بنظراتهم الفضوليّة، فقد تدبّر جمعة أمره ولم يكن ليفوته أمر خطير كهذا هو الذي اعتاد أن يكون متّقد الذّكاء. وجد جمعة وسط المهملات رداءً صالحا فلفّه على وجهه وربط على أطرافه قبل أن يضع الحجاب، وهكذا صار جمعة منقّبا ومع ذلك لم يسلم من المضايقات!!تقدّم جمعة في البداية بخطوات حذرة بطيئة ملتفتا يمنة ويسرةخوفا من أن يراه متطفّل ما يباغته بحضوره المفاجئ. ولمّا اطمئنّ تقدّم بطيئا حتّى كاد ينجو في مغادرته حيّه الصغير بابتعاده عن بيته مقدار خمسة أمتار...

«سيّدة نبيهة جارتي...»

هتف صوت من ورائه مباغتا، فتوقّف متسمّرا في مكانه... لم يستطع التّقدّم ولا التّراجع ولا الالتفات. كان ذلك صوت جاره الثرثار «بوتشا»، والواقع أنّ بوتشا هو لقب اكتسبه جاره لقصر قامته وظرف شخصيّته المضحكة، فكان أن أطلقوا عليه هذا الاسم الظريف حتى نسي النّاس فعليّا اسمه الأصليّ... وقد عرفه جمعة من صوته... لو كان إنسانا غريبا لهان الأمر ولاستمتع جمعة بلعبة التّخفّي تلك، خاصّة وقد

سكنه هوس جعله يظنّ كلّ من يراه ولا يعرفه سفّاحا. ما أجمل أن يخاطبني قاتلي دون أن يعرفني فأسخر منه فلا يقتلني!!

«آسف لأنّني أنال من وقتك الثمين، وربّما أسبّب لك الإحراج. لكن أنت تعرفين جارك الطّيب ونزاهته وحرصه الدّائم على التّحلي بالأخلاق الفضلى... إنّ من أوجب ما يمكن أن يتخلّق به المرء يا سيّدتي هو التواضع والاعتذار كلّما أخطأ خطئا غير مقصود... إنّ كلّ مشاكل العالم تتلخّص في هذا؛ لا أحد يتواضع فيعتذر عمّا بدر منه عن حسن نيّة... إنّ التكبّر هو آفة العصر يا سيّدتي العزيزة وهو الآفة التي تهدم الإنسان والمجتمعات وعنها تتولّد كلّ المساوئ... لا أدري لماذا يتكبّر الإنسان؟ وما هو هذا العمل العظيم الذي جعل منه مغرورا حتّى يفكّر على تلك الشاكلة؟ آه يا سيّدتي، إنّه لمن العجيب أن يحدث ذلك، في الوقت الذي لا يعدو الإنسان أن يكون آلة... مجرّد آلة بيولوجيّة من لحم ودم، تعمل بإذن الربّ، ومتى أذن الربّ لتلك الآلة بالتوقّف تهاوت كما تتهاوى الورقة من الشجرة، وذبلت كما تذبل التفّاحة...»

أضاف بوتشا مخاطبا جمعة المسكين من خلفه، فيما كان جمعة يحترق ويذوب؛ دقّات قلبه تتسارع، وجهه يحمرّ ويمتقع، ارتعاش خفيف بركبتيه يحاول التحكّم فيه، تنفّس صعب واختناق يحاول جاهدا البقاء حيّا معه. ومع ذلك ظلّ صامتا وصابرا منتظرا فرجا ما...

قال جمعة في نفسه: «يا له من يوم عصيب.»،بينما تحرّك بوتشا حوله...

«ولكن يا سيّدتي فيم صمتك؟ هل أبدو مزعجا وثرثارا؟ إنّ المواضيع التي نفتحها مع الآخرين تحتاج منّا مقدّمات لطيفة، وتلك المقدّمات لا تقلّ أهميّة عن الموضوع نفسه يا سيّدتي إن لم تكن أهمّ منه في كثير من الأحايين... وأنا أحتاج إلى المقدّمات لأنّني كما تعلمين وكما يعلم زوجك جمعة وكلّ أهل حيّنا الطيّبين، رجل خجول يسبقني حيائي ويأسرني فلا أستطيع كلاما ومع ذلك سأتكلّم بإيعاز من واجبي الأخلاقيّ وكي لا يبقى ذلك الشيء نقطة سوداء في قلبي تعذّب ضميري وتقضّ مضجعي فلا أنام مرتاح البال هانئا كأيّ رجل شريف... الحكاية يا سيّدتي... ولكن لماذا لا تلتفتين وتسمعينني؟»

قال بوتشا جملته الأخيرة وتقدّم ليواجه جمعة الذي أشاح بوجهه ناحية اليمين فلم ير جاره الثرثار غير سواد غطاء وجهه ورأسه، وعندها التبس عليه الأمر وغلبته الدّهشة...

«إنّي لأتفهّم موقفك جيّدا يا سيّدة نبيهة، أنت صرت امرأة زاهدة فجأة... ومن تمام الزّهد الصوم عن الكلام، كما قال النبيء الكريم؛ خير العبادة الصمت... ربّما فكّرت طويلا قبل اختيار طريق حياتك الجديد، ومن المؤكّد أنّك والصديق جمعة قد تجادلتما طويلا حول هذا الأمر... إيه يا أختي، البيوت أسرار وكلّ الناس تضحك بينما تبكي في البيوت!! وعلى كلّ فإنّي أتفهّم موقفك جيّدا وأحترمه... ذلك هو جارك الطيّب الذي لا تعرف الناس قيمته... ولأجل ذلك أقول هذا أنا، أخوك وجارك الملقّب ببوتشا، الكلّ يعرفني فلا ضير إن كلّمتني مهما كان طريقك الجديد...»

وانسحب بوتشا إثر ثرثرته المطوّلة كمن أحسّ بالمهانة، فتراجع خائبا خلف جمعة يريد الذّهاب إلى بيته الملاصق لبيت جمعة. أمّا جمعة فلم يهتمّ، بل رأى بالأمر فرصة أكيدة وغير منتظرة للنجاة من جاره وثرثرته البغيضة، ومن ذا الذي يقع في قبضة بوتشا وينجو؟

رأى جمعة الوقت مناسبا للهروب والانطلاق بعيدا فطفق يحثّ خطاه، متمايلا كعارضة أزياء، إذ كان حذاء زوجته الأحمر يؤلمه لضيق فيه ويفرض عليه طريقة مشي عجيبة لم يتخيّل جمعة أن تغدو مشيته يوما ما... كان يقاومها محاولا أن يمشي كما المعتاد دون جدوى...

«سيّدة نبيهة، أردت أن أكلّمك بشأن الدم على عتبات بيتكم...»

صاح بوتشا وراءه فتسمّر في مكانه ثانية دون أن يشعر، لم يكن بإمكانه تجاهل مؤشّر كاد يذهب بعقله مثل ذاك، كان ذلك رغما عنه فقد سكنه الهوس وتمكّن به، وصار وقوفه الإلزاميّ الآن مصحوبا بخوف شديد يقرب من الرعب... وحيث أنّه لا يستطيع التكلّم كي لا يُفضح سرّه بإخراج صوته الرجاليّ الغليظ البغيض من بلعومه، فإنّه ظلّ واقفا ثابتا كأنّما دقّت قدماه إلى الأرض بالمسامير منتظرا رحمة الله بأن يجري قدرا مناسبا رحيما. أمّا جاره بوتشا فقد ظنّ أنّ السيّدة نبيهة –التي لم تكن إلّا جمعة في تلك اللحظات العصيبة- تخاصمه وتكنّ له مشاعر الغضب والازدراء فلا تكلّمه. فأقبل المسكين يحثّ الخطى تجاه البائس صاحب الجلباب

النّسائيّ، يعرج بقدمه اليمنى حتّى لا يكاد يطيق الدوس بها على الأرض.

«إنّه لأمر مؤسف أن يوضع المرء في موقف مثل هذا، وإنّه لمن دواعي الحرج الشّديد أن تلاقي تلك المشاعر المؤلمة المرهقة للنفس والعقل حيث أنت مدان ومغضوب عليك بينما أنت في الحقيقة مظلوم وتستوجب حالتك التّعاطف لا العقاب، إذ يصدر عنك مجرّد خطأ بسيط لا تجد حياله صدّا أو منعا...»

قال بوتشا وقد صار محاذيا لجمعة. تكلّم المسكين بانكسار وحزن يجعل السّامع مشفقا عليه، غير أنّ جمعة استبطن في نفسه مشاعر وأقوالا أخرى مخالفة لما يحيل إليه الموقف في ظاهره من شفقة وتعاطف...

«ماذا يريد ابن العاهرة هذا؟! ها قد عاد إلى الثرثرة ولن أخلص منه قبل حلول المساء، وعندها يدركني السفّاح فيحيلني إلى ذكرى!! فليأت السفّاح الآن... السفّاح أرحم من بوتشا! على الأقلّ سيقضي عليّ سريعا. أمّا هذا الوغد فسيقتلني ببطء عرقا بعد عرق!!» قال جمعة في نفسه، بينما استطرد بوتشا حديثه بعد أن فقد الأمل في الردّ: «يبدو أنّ قلبك لا يلين ولا يأذن لك بمسامحة جاركم اللطيف بوتشا، حسنا يا سيّدتي اسمعي إذن واحكمي بنفسك إن كان بوتشا مخطئا. بينما كنت هانئا في بيتي وسعيدا وراضيا، هاتفني قريبي ودعاني لزيارته الأكيدة في التّوّ واللحظة... كان ذلك عسيرا عليّ وشاقّا، من ذا الذي يجد القدرة على فراق مجلسه الدافئ أمام التلفاز يوم

العطلة الأسبوعيّة؟ اعتذرت له بلباقة وخبّرته أنّني مشغول إلى الحدّ الذي لا أجد فيه الوقت لشرب كأس من العصير البارد أنا في أشدّ الحاجة إليه... فأصرّ، وعندها اعتذرت ثانية وقلت إنّ الوهن يسكن عظامي فلا أستطيع حراكا خارج منزلي الدافئ. فأصرّ ثانية وأقنعني تحت وطأة خجلي وأخلاقي أن أزوره. فقد ادّعى أنّه يحتاجني لتركيب خزائنه وإصلاح ما تلف فيها... أووه يا سيّدتي نسيت أن أعلمك أنّ قريبي هذا غادر بيته القديم نحو مسكنه الجديد... يا ربّي ما أجمل ذلك المسكن وما أبهاه... المهمّ أنّي لم أجد فكاكا من ضرورة زيارته كواجب يمليه عليّ إحساس عميق بالرجولة... فبوتشا رجل ذو مبادئ وأخلاق، قلّما ستجدين في زماننا رجلا ذا أخلاق يا سيّدتي الكريمة. ومن الأخلاق بل من أخلاق بوتشا حصريّا، المسارعة لمساعدة الآخرين ومساندتهم في المحن. وقريبي كان في محنة... إذن لا بأس لو تكرّمتُ ببعض وقتي لمساندته داخل فوضاه... إنّ الانتقال من مسكن إلى مسكن ليس بالأمر الهيّن يا سيّدتي! فهناك ينفتح الإنسان على الفوضى... الفوضى تكون داخله وخارجه. عندما نغيّر الأوطان والمساكن نتبعثر من الداخل تماما كخزانة مليئة ومكسورة. وتتناثر أشلاؤنا الدّاخليّة كتحطّم قنينة زيت! إنّ المسكن يا سيّدتي كما الوطن، ليس قطعة أرض مسيّجة ومبنيّة، ليس تلك الجدران الباردة، ولا هو ما نضيفه على الجدران وحولها من قطع ومن زينة... إنّ المسكن يا سيّدتي كما الوطن هو سكينة الروح التائهة... هو أماننا الشخصيّ بما نجده في أنفسنا من سلام وحبّ ورضاء. أم حسبت أنّ من دفعوا حياتهم من

أجل الوطن كان من أجل لا شيء؟! اللاشيء هو غياب المعنى وعلى وجودنا أن يكون ذا معنى وإلّا انقلبت الحياة جحيما وتهنا وراء زيف الأشياء التي لا تنفع... هل ظننت يا سيّدتي أنّ قيمة حضورنا هنا أو هناك تُحسب بدرجة الامتلاء حولنا؟ كلّا يا سيّدتي بل تُحسب بدرجة الامتلاء داخلنا... لا فائدة تُرجى من الجدران ومن قطع البلور والخشب والذهب والقصدير، ما تلك إلّا وسائل لتيسير حياتنا. أمّا الجوهر فداخلنا... لذلك وحينما يغيب الجوهر، فإنّ الناس هؤلاء يكدّسون حولهم أشياء كثيرة ثمينة أو هي تبدو كذلك، آلات وأثاث وزينة... لأنّهم مُفرغون من الدّاخل والطبيعة -كما يقول الفلاسفة الذين لا أدري بماذا يتفوّقون على بوتشا - تأبى الفراغ. لذلك يملأ الناس فضاءهم الخارجيّ بالأشياء عديمة النّفع لأنّهم مفرغون من الدّاخل!!

قريبي أيضا كان من ضمن الناس المفرغين من الدّاخل. اكتشفت ذلك حين زرته وعاينت بنفسي فوضاه الخارجيّة من خلال الأشياء التافهة التي أمضى عمره الطويل يجمعها... وسط تلك الفوضى الخارجيّة، وقد ملأت فضاء البيت الجديد قطع الأثاث الكثيرة، وسط تلك الفوضى حدث طارئ لبوتشا. لقد أصيب بوتشا بعد أن داس مسمارا حادّا! ذلك المسمار الذي يدميني وجعا... ولكن كلّ وجع يهون، أيّ وجع هذا الذي سينال من صلابة بوتشا؟ غير أنّ الذي ملأ العمّ بوتشا خجلا هو خطّ الدّم الطويل الذي رسمته خلال مساري نحو بيتي... قد لا ينتبه الغرباء لفعلي غير المقصود، لكن أين أخفي وجهي من جاري العزيز جمعة وقد جعلت أقطر دما أمام بيته؟

لقد أُنهكت خلال مساري يا جارتي فترنّحت وارتحت على عتبات بيتكم فاعذروني يا سيّدتي ولتصفحوا عن خطأ بوتشا المسكين غير المقصود!!»

كان جمعة يسمع خطاب جاره الملّ بنفاذ صبر. وجد نفسه خجولا في حضرته، خاصّة لمّا كان عليه أن يلعب دور زوجته مُرغما، بل ورجا أن ينجح في هذا الدّور ولا يُفضح أمره، كان الصمت سلاحه وتقنيته للنّجاح. واستحضر في لحظة ملكته من لحظات اللّعبة التي تورّط فيها أنّه مسؤول تجاه زوجته، استشعر أنّ على عاتقه واجب الظهور بمظهر لائق يشرّف زوجته نبيهة كما لو كان هي ذاتها. استشعر ذلك في الوقت الذي ارتأى فيه أنّ وقوف زوجته –التي لم تكن غيره- بهذه الطريقة ولوقت طويل مخلّ بالكرامة، ليست كرامة زوجته فحسب بل كرامته هو وشرفه الشخصيّ أيضا. من منّا يرضى مهما كان تفتّحه أن تقف امرأته في حضرة رجل لمدّة تقارب الساعة حتى لو كان رجلا أبله وشريفا وبريئا مثل العزيز بوتشا؟

نتيجة لتلك الأفكار، كان جمعة ضجرا وتائها يرجو بكلّ قوّته في التّمنّي أن يعتقه بوتشا. ولأجل تيهه ذاك لم يركّز في كلام بوتشا ولم ينتبه للتفاصيل الكثيرة المملّة التي أوردها، ولالتلك الفلسفة البغيضة التي بدا عليها فجأة وقد أخذته حميّة حماس حديث المقهى وجلسات التلفزيون السياسيّة المأجورة، فطفق يفلسف كلامه كمفكّر... غير أنّ اعترافات بوتشا الأخيرة واعتذاراته المتكرّرة قد هزّت جمعة من الأعماق وأنسته نفسه. من جهة وجد في نفسه تعاطفا ولينا تجاه جاره،

وأحسّ ببهجة نتيجة الارتياح العميق لمعرفته سرّ قطرات الدّم على عتبات بيته من جهة أخرى. تلك القطرات التي أشعلت نيران الخوف والهوس والاضطراب داخله. في تلك اللحظة الأخيرة التي لم يملكها جمعة ولم يملك نفسه خلالها، طفق يكلّم جاره ساهيا عن دوره الذي نسي أن يُتقنه...

«ألف سلامة عليك!»

نطق جمعة بصوت رجاليّ متلعثم يميل إلى الغلظة، لكنّه سرعان ما تدارك نفسه فعاد إلى الصمت. غير أنّ بوتشا كان منتبها وعالي التركيز في تلك اللحظات، مَنْ مِنَ الرّجال يقف في حضرة امرأة ولا يكون منتبها لأدقّ تفاصيلها؟

«شكرا يا سيّدتي الكريمة، لكن ما بال صوتك يغدو هكذا؟»

قال بوتشا ذلك سريعا دون دهشة، فامتقع وجه جمعة المخفيّ جيّدا واحتقن بالدماء التي فارت خوفا من افتضاح الأمر. لم يدر جمعة كيف يقول، غير أنّ بوتشا أسعفه وعاجله بقول رأى فيه جمعة بصيصا من الأمل في النّجاة...

«انتبهي لصحّتك يا جارتي، يبدو أنّك تُعانين من نزلة برد مخيفة...» أضاف بوتشا بتعاطف دون أن يتسرّب شكّ ما إلى قلبه، أو يخطر بباله شيء من المستحيل أن يُخمّنه...

«شكرا لك يا جارنا الطيّب لأجل تعاطفك ومشاعرك النبيلة، فهمنا الموضوع وقبلنا اعتذارك، فهل لك أن تسمح لنا

بالذّهاب. فكما ترى صار موقفي محرجا، ناهيك عن تأخّري عن شؤوني.»

قال جمعة بلهجة رقيقة حرص أن تُشابه لهجة النساء، كما أنّه عمل على تغيير نبرة صوته لتكون رقيقة نسائيّة ما استطاع الاستنجاد بأناه الأنثويّة المخفيّة!!

«طبعا، يمكنك الذّهاب يا سيّدتي، فلتغفري لبوتشا إضاعة وقتك وإحراجك. فكما رأيت كان الموضوع مهمّا، لكن انتبهي لصحّتك فقد ذهب المرض بصوتك وآذى حنجرتك جدّا!!»

4

بينما كان بوتشا يلقي كلماته، انطلق جمعة مسارعا في المضيّ قدما. فقد تأخّر الوقت ومضت شمس النّهار إلى الزوال. ورأى الموظّف المسكين في انتهاء موضوع بوتشا الأخير فرصة للخلاص قبل أن يفتح جاره الثرثار موضوعا جديدا... وعندما سارع جمعة مجاهدا حثّ خطاه، بدت تلك الخطى محاكية لمشي عارضات الأزياء، ولكن ما أبعد خطى جمعة المسكين عن إغراء مشي العارضات!!بدا مشيه كمشي الغراب الذي عنّ له في ساعة طموح أن يقلّد مشي الحمام!! بدا وكأنّه يرقص وركبتاه تميلان ناحية الشمال مرّة واليمين مرّة، وتبديانه في مشية بين التأرجح والتبختر والتهادي كالمرأة اللّعوب... مع ذلك كان جمعة يحاول أن يكون رجلا كما اعتاد دون جدوى، كان يوشك على التعثّر فانشغل بالجهاد ضدّ الوقوع، ساهيا عن إصلاح مشيه. واستسلم جمعة لبؤسه فراح يتمايل مغتاظا، والحذاء الأحمر الضيّق يضغط أصابعه فيؤلمه، ويتلوّى جمعة كامرأة لعوب ويتبختر بينما يعتصر وجهه ويمتعض ألما خلف نقابه، مجتازا الشارع الطويل المألوف عنده...

ما إن تغادر الزّقاق الشعبيّ الضيّق وتلج قدماك خارجه حتى تجد نفسك ملفوظا ضمن مسار ذلك الشارع. هو نبض المدينة الصغيرة وشريانها، على جانبيه المقاهي والمطاعم وبعض الإدارات والمحلات، وداخل بطنه الممتدّ الواسع لا تهدأ

للعربات والسيارات والحافلات والمجرورات حركة... إنّها مثل خليط الدّم الذي يتدفّق في العروق بين ثنايا الجسم النّشط. وقد تعوّد جمعة على امتداد سنوات حياته أن يسلك ذاك الطريق الطّويل ذهابا وإيّابا... حينما كان طفلا سلك نفس الشارع يوميّا ليلتحق بالمدرسة صباحا، وبعدما يعود يسلكه مجدّدا باتجاه حديقة الحيوانات حيث يمضي وقتا طويلا يتأمّل خلاله تلك الكائنات العفويّة الصادقة... وعندما يعود إلى البيت، يسأله أبوه «أين كنت؟» فيقول بمنتهى الحزم والجدّ: «آه يا والدي ما أجلّ المعرفة! وما أجلّ السباحة بين معاني الكتب...» ترتسم عندها ملامح البهجة على وجه الأب، وتلمع في عينيه لمعة الاستحسان، ثم يقول كساذج مخدوع: «أُنظري يا أمّ جمعة، ابنك نبيه وذكيّ وصالح، يقضي وقته سابحا بين معاني الكتب في المكتبة! حقّ لك أن تفخري به بين الأمّهات!!»

عندها تُفتح أحضان التبجيل لجمعة... ينال أحسن فراش في البيت، ويأكل طعاما خاصّا، وتنهال عليه عبارات التبجيل والتكريم... منذ صغره عرف جمعة الدهاء والكذب. كانت تلك موهبته حيث يعرف ما يريده كلّ شخص منه فيسايره ويسير على هواه موهما إيّاه بما يريد، وهكذا كان جمعة ناجحا... بالكذب نال رضاء والديه، وبالتّزلّف نال رضاء مسؤوليه دائما والعلاوات والترقيات... رغم سقطاته المدرسيّة الكثيرة، ونجاحه إثر ذلك بشقّ الأنفس، كان جمعة يوهم أباه ببذل الجهد وانعدام مسؤوليّته في الفشل... وكان أبوه يحنو عليه ويقول: «المسكين يبذل ما في استطاعته للنجاح، ولكن لا تبدو المدارس عادلة... إنّها تقوم على المحاباة والمجاملات

البغيضة، ولا اهتمام لمن يذهبون ضحيّة الظلم مثل ابني جمعة!! من ذا الذي سينظر لوالد جمعة الفقير معرضا عن الكوادر التي تودع أبناءها المدرسة رفقة جمعة؟!» غير أنّ الحقيقة التي لا يعرفها أبو جمعة، هي اضطرار ابنه كلّ سنة إلى تسوّل الأعداد والعلامات لكي ينجح وينتقل من مستوى إلى مستوى أعلى...

وجاء يوم الباكالوريا وكانت المفاجأة... جمعة البغيض ينال أعلى الدرجات ليكون الثاني على دفعته. عندها صاح أبوه في الناس: «ألم أقل لكم إنّ ابني مظلوم؟ ألم أقل لكم إنّ المدارس تقوم على المحاباة؟ ومن طلب العلى سهر الليالي... ها هو ذا الامتحان الوطنيّ ينصف جمعة، لأنّه لا محاباة فيه ولا تمييزات... إنّهم يتعاملون مع ورقة، وإذن نجحت الورقة... لو عرفوا من هو جمعة ما أنصفوه...»

فعلا صدق أبو جمعة فقد نجحت الورقة، غير أنّها لم تكن ورقة الامتحان الذي لا يُحسن جمعة البتّ فيه، بل ورقة ثانية تشبه ورقة الرّهان... راهن جمعة على ورقة غشّ لا تبدو مضمونة لكنّها بحظ وافر نجحت ونجح من مثيلاتها ورقات وسرقات...

عندما سألوا جمعة عن الجامعة التي سيختارها، قال إنّي أختار الوظيفة. وهكذا ربح جمعة عمره، وتوظّف سريعا دون حاجةللوك مقولات الحكماء في الجامعة كأبله، فيما يكون عليه بعد ذلك أن يمضي عمره التعس في البطالة... حافظ جمعة على عاداته، الكذب والغشّ والتزلّف هي سرّ نجاحه

وترقياته... لكن هاهو يمرّ في الشارع الآن، الشارع الذي تعوّد أن يسلكه موظّفا مرموق القدر، وتعوّد في ذاك المرور على عبارات الترحيب والتبجيل والتحيّة من بعيد... أمّا الآن فهو فأرة خائفة تخشى أن يُكشف أمرها. وما إن تلوّى يخطو كأنثى ذات دلال على الرّصيف حتى تلقّفته العيون المراقبة كالكاميراوات...

«يا ورد من يشتريك!!» قال شابّ أكلت السجائر أسنانه، ظانّا أنّ جمعة امرأة!!

«قل للمليحة في الخمار الأسود...» قال رجل عجوز متهالك القوى.

«منقّبة تمشي مشي الساقطات. يا للعار!!» قالت امرأة تعوّدت الغيبة، قبل أن تمضي إلى شأنها البعيد.

أحسّ جمعة بالحرج، ونبتت على جبينه حبّات عرق... يا للمهزلة، حوّله خوفه إلى امرأة. توقّف مرّات ومرّات حرصا على إيقاف تاكسي، لكن ويا للحظّ العاثر، لم تقف ولا واحدة بسبب انشغالها بمن هم راكبون... إنّه يوم العطلة الأسبوعيّة، وهو يوم الزيارات والمجاملات. تخرج فيه العائلات للتّزاور، ونفض أعباء اللوم عن عواتقهم. ولأجل ذلك كان من الصّعب أن يجد جمعة سيارة تاكسي واحدة مفرغة من الرّكّاب... لكن أمام سيل إهانات الألسن العديدة المتطاولة في شارع مكتظّ لا تهدأ حركته، لم يجد جمعة بدّا من الكفاح من أجل الفوز بمقعد تاكسي. عليه إذن أن يقف ثابتا في مكانه صابرا بلا حراك، وأثناء ذلك الجمود يلوّح بيده مرة بعد مرة كلّما ظهرت في الأفق

البعيد تاكسي... ظهرت أعداد منها، تأتي من بعيد، تقترب سريعا، ثم تختفي عن ناظريه مسرعة باتجاه الأحياء البعيدة. وجمعة واقف يلوّح بيده كشرطيّ مرور، لكن بدا فعله عبثيّا وبلا فائدة تُرجى عكس الشرطيّ الذي لا غنى عنه في تنظيم تلك الحركة المجنونة لسيل جارف من عربات كثيرة لا تهدأ... في غمرة ذلك الضياع، تحوّلت حركة يده إلى ثرثرة ففقد زمام السيطرة عليها، وغلب عليه البؤس والرغبة الشديدة في المغادرة التي غدت شوقا، فطفقت يده تلوّح لسيارات شعبيّة ظنّها في غمرة يأسه سيارة تاكسي. ربّما هو السّراب ومض لعينيه مصوّرا له كلّ العربات تاكسي!كان يومئ للعربات المختلفة من بعيد وقد لمعت على بلورها أشعّة خافتة لشمس تأفل ثمّ ما تلبث يده أن تنزل، وما تلبث بعد ذلك أن تعاود الصعود حتى غدا جمعة المسكين كقائد الأوركسترا، يشير بيده ولا عزف حوله غير ضوضاء السيارات حين تحتكّ عجلاتها بطريق الإسفلت الطويل. أمّا الجمهور فعيون مفتوحة واسعة كالفناجين الصينيّة تتابع بشغف ما يكون من أمر هذه المرأة المنقّبة... ولقد أحسّ جمعة ببعض الراحة لوقوفه المضني، ذلك أنّه قد أراحه من سيل الإهانات الجارف الذي سكت عنه بعد لحظة يسيرة من وقوفه. ولكنّه يعلم أنّه لن يلبث أن يتجدّد بمجرّد انطلاقه ماشيا في إغراء لا يقصده حين يضغط ذلك الحذاء النسائيّ على أصابع قدميه فيترنّح متمايلا كعاهرة...

لمّا غلب عليه اليأس كثيرا جدّا، طفق جمعة يشير للسيارات لتقف له كيفما اتّفق، لم يعد مكتفيا بالتلويح للتاكسي، بل صار يتعمّد التلويح للسيارات على اختلاف

أنواعها لتقف... بدا له إيقاف تاكسي فرصة منعدمة في مثل هذا الجوّ المشحون بزيارات التقارب والتنزّه. ولذلك ارتأى أن يوسّع مجال الفرص. «ما معنى الاكتفاء بالبحث عن سيارة صفراء؟ هل أنا في أوروبا؟ حتى يتوجّس منّي الناس خوفا، فلا أطمع إلاّ في تاكسي؟ حتى أوروبا ذاتها يوقف الناس سيارات عاديّة ليركبوا أوقات الزّحام، وإذن ففيم أضيّق فرصتي فلا أفلت من هذا الجحيم...» حدّث جمعة نفسه بذلك يريد تبرير فعله وطمأنة نفسه وبعث أمل جديد في أوصاله التي آلمها البرد، ناهيك عن قدميه التي سرى فيها ألم لاذع كصعق الكهرباء الخفيف جرّاء ضغط حذاء زوجته الضيّق... ولكن هيهات، فلا أمل على ما يبدو يلوح لحظّه العاثر. كانت بعض السيارات تمرّ فيحدجه سائقوها من خلف البلّور، ثم يتركوه ويسرعون... بعضهم يبتسم سخريّة، وبعضهم يرخي شفته السفلى تبرّما واستهجانا، وبعضهم ينظر ناحيته بحياد وبلاهة قبل أن يواصل طريقه مسرعا بلا مبالاة، وبعضهم يدير رقبته دورتين احتقارا فتأخذ جمعة الظنون وتستبدّ به لثوانٍ قبل أن ينطلق لمطاردة سيارة أخرى... أمّا الصنف الثاني من السيارات فقد كان مشغولا جدّا بالطريق مستغنيا عمّا يحدث على جانبيه حتى وإن وقف السيّد جمعة على أعتاب الرصيف يستجدي إسعافه بالركوب...

في الأخير يئس جمعة وتذكّر في لحظة ساخرة حكاية لا يدري من كتبها، ولكنّه يذكر تفاصيلها الكبرى كما حدّثه عنها صديقه المحترم أستاذ الفلسفة. تقول الحكاية كما تذكّرها جمعة أنّ بائسين ينتظران على مفترق طريق ريفيّ صديقا ثالثا

سيخلّصهما من معاناتهما وآلامهما يسمّى جودو وبعد انتظار شاقّ وأحاديث كثيرة متفرّقة وبلا معنى تنتهي الحكاية دون أن يظهر المخلّص... وقرّر جمعة أن يمشي فضحك وهو يخطو متمايلا وقال: «ما أشبهني بسرجون فعلا!!» لقد كان جمعة يعني حرفيّا أن يقول ما أشبهني باستراجون، إحدى شخصيّات مسرحيّة «في انتظار جودو»، وتلك المسرحيّة هي التي تذكّرها عقله في لحظات يأسه وإحباطه. ذلك أنّ عقل جمعة الكسول تعوّد أن يسمّي كلّ الآثار الأدبيّة حكاية!!أمّا وجه الشبه الذي أضحك جمعة في تلك اللحظات العصيبة، فهو ما تراءى له من تشابه في الألم الذي يسبّبه الحذاء للأقدام، فاستراجون أيضا عانى في المسرحيّة من ألم ساقين يضغط حولهما حذاء ضيّق لم ينزعه منذ مدّة طويلة...

حين تمايل جمعة في إعياء، توقّفت تاكسي أخيرا وأصدرت نغمة التنبيه فلوى موظّفنا عنقه مستبشرا. ودهش لمّا بدت له سيّارة التاكسي بلا كرسيّ شاغرٍ، فتساءل سريعا وكان محبطا: «فيم يوقف السيّارة إذن؟» وقطع السائق تلك الحيرة مشيرا بإصبعه الذي رسم في الهواء دائرة قبل أن يواصل سيره سريعا. وفهم جمعة أنّ سائق التاكسي يشير إليه بانتظاره هنا، ويطمئنه باعتزامه العودة نحوه إثر الفراغ من وصلته هذه...

«حتى الأمل الذي يقولون عنه إنّه يأتي أخيرا حينما نسلّم يائسين من مجيئه يأتي كاذبا!! كيف أضمن عودته؟ وماذا تعني عودته غير مزيد من العذاب والانتظار لأمل قد يأتي وقد يغيب؟ ماذا لو نسيني؟ لا، لا، لن ينساني... كيف ينساني ورزقه

متعلّق بي؟ لا ينساك إلاّ من يقدر على الاستغناء، وسائق التاكسي لا يمكنه الاستغناء عنّي، لأنّي مناط رزقه الذي يسعى إليه بكلّ الجهد... ولكن يا جمعة يا غبيّ زمانك، من أدراك أنّه عائد، في الوقت الذي تتطاحن الزبائن حول سائقك؟ في طريق عودته سيجد زبائن ينتظرون، واقفين مثلك وخائفين من شيء ما... ربّما موعد مهمّ، وربّما خائفون أن لا يتمّ أمر وربّما مهدّدون بالقتل مثلك... وربّما هم ضجرون ويسارعون للركوب فحسب... ففي الانتظار يتساوى الجميع في مشاعر السخط والرغبة في النجاة بشكل أسرع... ليس الخوف فقط ما يطارد الإنسان... الإنسان قلق بطبعه، ميّال إلى الضجر والحزن... لا تأمل كثيرا يا جمعة ولا تثق بوعد السائق حتى إن بدا لك أنّه صاحب مروءة، ففي لحظات الطمع يتساوى الإنسان وتنهار مبادئه... الله الله على المبادئ يا جمعة!اُنظروا من يتكلّم! الرجل الذي باع ذمّته من أجل دنانير زهيدة... الرجل الذي تكفيه زجاجة خمر رديئة ليقبلها بسرور كرشوة عظيمة يبيع من أجلها وطنا قطعة قطعة دون أسف... الرجل الذي يلقي أمّه في دار المسنين من أجل إرضاء زوجة قبيحة يخونها بين الفينة والأخرى مع عشيقة تخفي قبحها المساحيق! الرجل الذي باع منزل العائلة ليسكر وينفق من أجل عشيقته!!الرجل الذي خلّف العار لأبيه حين خرجت جنازته من بيت ابنته!! الرجل الذي لم يكن رجلا... وهاهو الربّ يمسخك، لا أنت امرأة ولا أنت رجلا، بل قردا في ثياب سوداء تلبسها العفيفة الطاهرة في أعين الناس... لكن حتى هذا التخفّي ليس لك... ها هو الربّ يفضحك فتمشي مشي الساقطات رغما عنك...

لكن ها هي نغمة تنبيه من الخلف. أهو سائق التاكسي قد عاد؟»

التفت جمعة متسائلا وباحثا عن مصدر نغمة التنبيه، ذهب في ظنّه أنّه سائق التاكسي مع علمه أنّ سائقه إن كان سيعود أصلا فإنّه سيعترضه وسيكون قبالته. أمّا النغمة التي قطعت تفكيره الطويل ومشيه المتمايل فقد كانت من الخلف، وما أكثر ما يأتينا من الخلف كالحكايات التي تقتحم حياة جمعة فجأة...

5

سيارة «ميغان»رماديّة، وسائق ناعم البشرة، حليق الوجه، أسمر نحيل، يشعّ وجهه حياة، وشعر رأس خفيف مجعّد، وابتسامة تملأ الملامح، ونظرة لامعة. ذلك ما تراءى لجمعة حين توقّف عن المشي والتفكير والتفت بكثير من الفضول والأمل...

«مساء الخير يا سيّدتي الكريمة...» قال الرجل المحتمي في سيارته الفارهة. وتذكّر جمعة سريعا أنّه امرأة في نظر من يتلقّى حضوره الفيزيائيّ، ولم يكن ليفوته الاستنجاد بأناه الأنثويّة ثانية... هويته الرّجاليّة لا يجب أن تكشف إلّا لصديقه فزّاع، وفزّاع بعيد يحتاج جمعة أن يركب ليصل إليه حيث يبدو أنّه شاطئ أمانه، والوصول إلى شاطئ الأمان يحتّم عليه التضحيات الأكيدة...

«طاب مساؤك سيّدي...» قال جمعة بنبرة نسائيّة رقيقة ما استطاع، قال جملته وأتبعها ضحكة مائعة... لقد ضحك سخرية من نفسه وإلى ما آل إليه حاله من مهانة. وفي أجزاء بالمائة من الثانية فهم سريعا أنّ على ضحكته أن تجيء أنثويّة مغرية، فكان أن مالت نحو الغنج الذي لم يقصده فخرجت صوتا غريبا مضحكا يشبه نشاز نغمة كمنجة حين يعزف عليها هاوٍ دخيل قبل أن تُفتكّ منه. ولكن بدا من سائق «الميغان» الشابّ صاحب البذلة الزرقاء الفاخرة رضاء وإعجابا... بدا

وكأنّ ضحكة جمعة المصطنعة التي غلبته فميّعها قصدا كي لا تفضحه، تروق له. وبدت ضحكة جمعة تقول أشياءً لم يقصدها...

«أراك متعبة، وأنا أستطيع أن أريحك.» قال الشاب مبتسما بإغراء أكبر.

«ترغبين أن أوصلك إلى مكان؟» أضاف الشابّ الأسمر، وغمز لجمعة وسط ذهوله وتيهه الذي لا يُلاحظ لحسن الحظّ، بحكم تخفّيه وراء رداء يشبه النّقاب!!

في تلك اللحظة العصيبة كدأب لحظات يومه هذا كلّها، استشعر جمعة قلقا وخوفا جديدا. ليس الخوف من الموت هو كلّ ما يزعجنا، وليس الموت فقط من يطمع في أجسادنا فنحذر منه. ثمّة خوف أكبر أحيانا يستهدف ذواتنا المتجسّدة... لقد استشعر جمعة في لحظته تلك تحرّش الشاب، هذا الشاب يطمع في جسد جمعة المخفيّ! أليست الأشياء التي نخفيها عادة مثيرة أكثر من تلك التي نظهرها؟! يا للفكرة يا جمعة صرت في نظر هذا الآخر جسدا أنثويّا خفيّا يغري بالاكتشاف والبحث، يغري بالغوص في تفاصيلك... الفضول فكرة محبّبة ومثيرة في الجنس أيضا... إنّ هذا الشاب لا يدرك منك إلّا عينيك اللامعتين، ومتى كشفت عينيك وأخفيت وجهك صرت مثيرا أكثر... النساء اللواتي نرى وجوههنّ نعرفهنّ... كشف الوجه رسالة تُشير إلى الوضوح وعندها يغيب عن عقولنا الهوس باكتشاف المجهول. كشف الوجه إذن يغيّب الفتنة. أمّا العينان اللتان تنظران فوق وجه مخفيّ فهما تغرياننا

وتفتناننا للمعرفة والاكتشاف... ينبع سؤال سريع داخل عقولنا الفضوليّة؛ أيّ تفاصيل وجه أسفل سحر النظرات؟ ما الذي يخفيه النّقاب عنّا؟ جمال أم قبح؟ سحر أم خفوت ضوء؟ لكنّ لعبة الإخفاء والنظر عادة ما تدفع عقولنا إلى التأويل المنزاح نحو الظنّ بالجمال والسحر والفتنة... ثمّة شيء لا يفهمه جمعة، لماذا يبدو امرأة مثيرة وقد تنكّر بالنقاب فلا يظهر منه شيء؟ وفيم ترك المكبوتون المرضى النّساء مكشوفات الوجه بلا مضايقات وضايقوه هو؟ ربّما لأنّهم تعوّدوا أن يكتشفوا أنّ المخفيّ أجمل بكثير ممّا يظهر. وهل يخفي الإنسان غير الأشياء الثمينة؟

«لا، شكرا. لا نرغب في إزعاجك...»قال جمعة بلكنة أنثويّة ما استطاع مستبطنا هوسا من الشاب الغريب، وقد التبست أناه بروح أنثويّة خائفة.

«ليس في الأمر ما يزعج، ربّما كنت في طريقي.» قال الشاب الأسمر مصرّا على اصطحاب جمعة، ومزيّنا وحشيّته بلبوس الشهامة...

«اليوم هو يوم العطلة الأسبوعيّة، ولن تقف لك تاكسي.» أضاف الشاب أمام تردّد جمعة. وتذكّر جمعة السائق الذي وعده بالعودة، ولكنّه أبطأ ولن يكون من المضمون أن يعود. فمن الممكن أن يكون قد نسيه إلى الأبد كما يقال منشغلا بزبون جديد. تراءى لجمعة أنّ مع الشاب حقّا، وتذكّر أمر التهديد بالقتل، ذلك الهوس الذي سكنه لمجرّد قول عجوز مخبول يلوك الأحاديث...

«شكرا يا سيّدي، بودّي لو توصلني إلى حيّ الكرامة.» قال جمعة بلكنة نسائيّة رقيقة مصطنعة كي لا يُفتضح أمره، متذكّرا أنّه رجل وذكر، لا يخشى على جسده كامرأة من الطمع فيه، كما أنّه ليس بالشخص طريّ العظم جبان القلب... «لا، جمعة رجل يعرف كيف يدافع عن نفسه جيّدا، ويعرف كيف يوقف المعتدي عند حدّه.» يقول جمعة ويتذكّر تلك الخصومات الكثيرة التي كان عليه خلالها أن يكون إنسانا جهولا يحطّم الأنوف، ويسدّد اللكمات، ويلقي الكراسي والحجر أحيانا... أمّا شابّ «الميغان» فقد استبشر وسعد ظنّا منه أنّه ظفر بصيد ثمين يغري بالاكتشاف البطيء.

«على الرحب والسعة يا سيّدتي، نوّرتِ السيارة.» قال الشاب، وفتح الباب. تمايل جمعة وتقدّم مترنّحا حتى استقرّ جالسا جنب الشابّ الذي ابتسم له في إغراء قبل أن يدوس بقدمه وتنطلق السيّارة كقطار سريع...

«حيّ الكرامة بعيد. ماذا تصنعين فيه؟» قال الشاب يريد التحدّث.

«ما دخل ابن العاهرة هذا بصنعي؟» تساءل جمعة داخله، قبل أن يلتفت ناحية الشابّ ليجيب بلهجة نسائيّة رقيقة لطّفها ما استطاع حتى مسخت ميوعة.

«أمّي تعيش هناك، وهي امرأة وحيدة مسكينة تحتاج رعايتنا وتشتاق «طلّتنا[2]» من وقت لآخر.»

2 - لهجة تونسية معناها زيارتنا

«يا سلام على البرّ، يا سلام على التقوى، أمّي كانت تقول دائما تزوّجها متديّنة تربت يداك، كما قال الرسول الكريم «فاضفر بذات الدين تَرِبت يداك...» إنّي يا سيّدتي أكنّ احتراما لا يوصف للمتديّنات من النساء والبنات في هذا الزمن الذي يشكو فسادا منقطع النظير حيث لم يعرف الناس مثله من قبل قطّ...» قال الشابّ بلهجة مدح تميل إلى الحكمة المصطنعة، وقد أعجب جمعة هذا الأمر فانخرط في اللعبة قائلا بنفس لهجته المائعة: «إيه يا سيّدي! الأخلاق وما أدراك ما الأخلاق! ذهبت الأخلاق وعمّ الفسوق والانحلال. وماذا يساوي الإنسان إذا انعدمت أخلاقه؟ ما نفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه؟!»

ولاحظ الشابّ بشغف لهجة جمعة المائعة فخمّن أنّ جليسته امرأة لعوب قبيحة تتستّر بالتديّن مخفية موهبتها في استمالة الرجال. كانت لهجة جمعة المائعة مزعجة، فليس فيها ولو جزءٌ بسيط من عذوبة أصوات النّساء عادة ناهيك عن الحسناوات منهنّ، رغم ما بذله جمعة من جهد فقد جاءت لهجته مسخا كغراب يغرّد. ولكن بدا أنّ تلك اللهجة الممسوخة قد نالت إعجاب الشاب ودغدغت قلبه، فبطريقة ما،يميل قلب هذا الشابّ لنساء الهوى وفتيات الليل، ولذلك فقد راقته تلك اللهجة المصطنعة، وبدا أنّ جمعة قد وقع من حيث أراد النجاة. وأراد الشاب أن يُلقي كلاما مألوفا في مثل هذه المواقف يُراد من خلاله إزاحة الشوك الأخير للشكّ والاطمئنان لموعد فاسق يعدّه من الآن، فقال: «هنيئا لزوجك بك يا سيّدتي. ليتني أظفر بمن تماثلك أخلاقا وعقلا.» وتذكّر

جمعة زوجته نبيهة ومقدار الخلافات بينهما فسرى على لسانه ما يتمنّاه دائما دون أن ينسى هويّته المصطنعة فقال بلهجته المائعة: «زوجي مات، لا زوج لي...» حينما قال ذلك بحسرة مصطنعة، ملأت أسارير الشاب وملامحه بهجة لم يستطع كبتها فهتف بصوت عالٍ: «ليرحمه الله!!» واستبطن داخله أنّها فرصة ممتازة للهو مع امرأة مهجورة، فاقدة للحبّ والسلوى، وربّما قال في نفسه «يا للحظّ المظفّر!!» هؤلاء الزناة يحبّون الأرملة من النّساء، فهي مسؤولة عن نفسها، حرّة طليقة، لا أب يخاف عليها ضياع شرفها ولا زوج يفتّش وراءها عن المياه التي تجري تحت قدميه... يحبّونها لأنّهم يتخيّلونها فريسة سهلة، حيث هي حرّة ومعزولة ومحرومة، فاقدة للحبّ وللحضن وللدفء وللسّند... كذلك فكّر الشابّ نحو جمعة، وطفق ينظر نحوه نظرات ناعسة ملؤها هيام وودّ مصطنع هو عدّة صائدي الإناث من الرّجال فاقدي الرجولة والشّرف... ولأنّ وجه جمعة كان مخفيّا فإنّه قد بدا من السخف والكذب المفضوح أن يبدي الشابّ إعجابه بجمال جسديّ عادة ما يُنبئ الوجه عن تفاصيله المخفيّة حيث هو البوّابة والسرّ والإجمال. ووجد الشابّ في الحديث عن الأخلاق والسلوك والشرف مخرجا من مأزقه، ومدخلا لمراودة قد تفلح موعدا غراميّا تتكشّف فيه أقنعة الشرف والعفّة المصطنعة فتتهاوى كما يتهاوى بيت القشّ ونسيج العنكبوت أمام سيول المطر...

«ممكن رقم هاتفك؟ إذ يسرّني أن أتعرّف إليك أكثر.» هتف الشاب في وجه جمعة، مستبطنا داخله لحظة بداية النصر والظفر بصيد قد يحتاج أياما من العمل لتسويته على

نار هادئة. أمّا جمعة فقد أصابه الكلام وحفر داخله عميقا. هو ما انفكّ يجرّب هذه الحيل والألاعيب ويصطاد الإناث ويصوّر لهنّ عالما خياليّا مدّعيا الرجولة والعذوبة وصدق النوايا الشريفة. لم يخبر فتاة عرفها بأمر زواجه بمن فيهنّ عشيقته الأخيرة حمراء الشعر. عشيقته حمراء الشعر تعرّف عليها في اجتماع مهنيّ، كانت فرصة ممتازة ويسيرة للهو ولإشباع الجوع العاطفيّ داخله. العادة قادتهما إلى حوارات جانبيّة حول العمل وبيئته، حول الزملاء والمديرين، الطرائف اللذيذة المضحكة، وأخبار العباد أصحاب المعاملات الإداريّة وما يصدر عنهم من سخف... ثم الضحك الطويل بينهما والمجاملات، ثم أخيرا تبادل أرقام الهواتف. وماذا بعد غير السهر الطويل مع المحادثات؟ ثم المواعدات واللقاءات وسقوط الأقنعة... في البدء زعمت أنّها امرأة بكر تأخّر مجيء ابن الحلال إليها. ولكن تهاوى ذلك أمام لقائهما في الفراش لأوّل مرة. استمتع جمعة وأخذته النشوة في تلك اللحظات العبقة بإغواء الشيطان، ولكن هزّته مرارة أيضا لأنّ الجميلة ذات الشعر الأحمر كذبت بادعائها الشرف والبكارة. وخلافا لانفتاحه على مباشرة جنسيّة مفتوحة الطرق حيث لا غشاء ولا ضيق، انفتح جمعة ساعتها على اكتشاف مبهر هزّه طربا وذهولا، فقد اكتشف في صاحبته امرأة لعوبا محترفة القدرات في اللعب والتقبيل والشقاوة!!

عندما عرفت أنّها ملكته وسحرت قلبه وعقله حبّا ولعبا، حان الوقت لتطبيق المرحلة الثانية. فادّعت أنّها أرملة مسكينة ترمّلت على شبابها ونضارتها. وطفقت تبكي بين يدي جمعة

قبل أن تلقي نظرات ناعسة نحوه وتقول بلهجة ملؤها التوسّل والدفء: «لا تتركني لوحدتي يا جمعة... أحبّك.» ثم دفنت رأسها في صدره واحتضنته... يذكر جمعة تلك اللحظات وتلك الأيّام. أيّهما كان يصطاد الآخر؟ فقد ظنّها بكرا وظنّته أعزب يفتقد دفء الأنثى وأنسها، فبدا لها فرصة لغسل العار ودفن الماضي. أمّا هو فبعد أن ابتلع مرارته في اكتشاف كذبها غزاه السرور لما عرف. فهي ثيب حرّة لم يزل هو بكارتها وليس أوّل من طمثها. فلا وخز ضمير، ولا عقاب قانون، ولا أب يفتّش، ولا أخ أو زوج يتهوّر... لذلك فقد احتضنها وحدّثها كثيرا عن الحبّ والمواساة وصوّر لها نفسه كمعَزّ، فارس نبيل جاء في الوقت المناسب، ناسيا للحظات جميلة لذيذة زوجته وبيته وأولاده... ثمّ كان الاكتشاف الثاني، العشيقة الجميلة ذات الشعر الأحمر لم تتزوّج أبدا ولم تطأ قدماها عتبة بيت زوجيّة لحظة... الأرملة التي لم تترمّل!! غضب جمعة بعد أن فتّش وراءها. لم يبذل جهدا في التفتيش، كان تفتيشا سهلا وعلى وجه الصدفة أيضا. في شقّة صديقه ميسور الحال، حيث هما يلتقيان ويظلّل الحبّ النديّ عليهما، اكتشف الحقيقة... يومها تواعدا على اللّقاء، حدّثته في الهاتف بغنج عن شوقها، عن حاجتها الأكيدة للقائه، عن لهفتها التي لم تعد تطيق صبرا في كبت جماحها، عن حرقة بفؤادها بعد أن خاصمته لثلاثة أشهر ماضية... قالت: «جمعة يا حبيبي أكلت النار قلبي فخذني إليك، لا تتركني لوحدتي ولظلمتي فإنّني أسيرة هواك...» وقال جمعة فرحا بأوبة صيده الناعم إليه وقد هزّه الشّوق إلى اللعب والاحتفال: «أنا أيضا اشتقت إليك بحجم البحر والسماء،

وقلبي في غيابك يشدو بحزن العصافير التي نثرت أعشاشها قشّة قشّة رياح الخريف!!» يا سلام على شاعريّتك يا جمعة، تبدو عبقريّا خسرتك الجامعة!!

واستلف جمعة المفتاح من صديقه فالتقيا، العشّ نديّ يعبق برائحة العنبر المحروق، والفراشورديّ ناعم الملمس يغري بالسّفر العميق على أمواج الخطيئة... عانقته طويلا وتنهّدت، قبّلته ويداها تطوقان خصره فطوّقها وانزلقت يداه تلامس أسفل ظهرها يجسّ ردفها بسفالته المعهودة وجوعه القديم... سحبت نفسها منه في هدوء، تركت حقيبتها على السرير ذي الفراش الورديّ. «أعود سريعا إليك.» قالت وغمزت له قبل أن تسارع خطاها نحو الحمام وتختفي فيه للحظات... وتلك اللحظات الوجيزة كانت مصيريّة لجمعة في كشف الحقيقة... على سبيل الصدفة والملل، القلق وضجر الانتظار، الفضول والرغبة في التسلية، امتدّت يده نحو الحقيبة ففتحها، ظهرت له أوراقها النقديّة القليلة وتراصّت جنبها أوراقها الشخصيّة... منظر الوريقات القليلة أغراه وتمنّى للحظة أن تكون تلك الوريقات له. ذكّرته الوريقات بتلك المبالغ التافهة التي تعوّد أخذها على سبيل الإكراميّة، الإكراميّة عند جمعة هي المرادف المحمود اللطيف وقعه على القلب لكلمة رشوة البغيضة. نعم فجمعة رجل ساقط يبيع ضميره المهنيّ ويبيع وطنه حتى من أجل ورقة يسيرة سخيفة من وريقات المال ولذلك فالناس جميعا تحبّه، تحبّه وتسخر منه في خلواتها أيضا... ولأجل ذلك فقد أذلّه الله وزرع في قلبه حبّ هذه الوريقات ذات الفئات الدنيا من القيمة الماليّة، ولكنّ جمعة

رخيص كأيّ فاسد في وطننا مستعدّ أن يبيع البلاد وأهلها من أجل عشرين دينارا وعشرة دنانير وحتى خمسة تلك التي تكفي لشراء زجاجة خمر رخيص حامض من نوع مرناق أو ماغون... [3] لكن بدا لجمعة في تلك اللحظات أنّ أمر الأوراق الشخصيّة واكتشاف هويّة صاحبته من الأوراق الرسميّةأمر مغرٍ بالاكتشاف، فترك أمر الوريقات النقديّة ومدّ يده إلى بطاقتها فجذبها، جذبها سريعا وقرأ بلهفة فضوليّ: الاسم شريفة بنت عبد الكريم، تاريخ الولادة 07/05/1976، المهنة متصرف إداري بوزارة التجهيز، الحالة المدنيّة عزباء!!

الأوراق الرسميّة تقول إنّها عزباء... اضحك يا جمعة يا طرطور، اضحك طويلا من خيبتك، عشيقتك ليست أرملة بل عزباء... عزباء برتبة عانس!! عشيقتك الثلاثينيّة أربعينية... ليست وردة بل شريفة بنت عبد الكريم. وربّما شعرها ليس أحمر، وربّما وربّما، كلّ شيء جائز وكلّ شيء خداع، وربّما هي لعوب يقف عبد الكريم أبوها خلف الباب منتظرا اللحظة المناسبة للانقضاض عليك... ربّما كنت أنت صيدها، وهي التي تتحيّن فرصة الإيقاع بك في شرك الزواج!! الزّواج من جديد؟ ألم يُقل إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين؟ فكيف تقع في الشّرك مرّتين يا جمعة؟ لكن متى كنت مؤمنا يا جمعة؟ أتعتبر من الربّ أنت لمجرّد تسليم عقلك بوحدانيّة الله ولأجل حبّ زُرع فيك منذ صباك لرسوله الكريم؟ أفّ لك يا جمعة، فلا شيء مما تفعله ينبئ عن إيمانك!! كلّ ما نصّت عليه الشريعة خالفته، اللّهُمَّ إلاّ بعض الأيّام التي صمتها مجبرا

3- نوعا مشروبات كحولية تونسية شعبية.

في رمضان خوفا من الناس ومن احتقار زوجتك وازدرائها... زوجتك؟ ماذا لو علمت زوجتك بأمر شريفة؟ هل سنشهد خصومة نسائيّة مضحكة من أجل رجل فاقد للرجولة؟! «عركة وشهود على قنفوذ!!»[4]

بينما كان جمعة يسبح مفكّرا ويضحك، صدر عن باب غرفة الحمام صرير كالعويل. فسارع جمعة إلى البطاقة يُخفيها، والحقيبة يغلقها. وأقبلت عشيقته تتمايل في إغراء... استحمّت، وأزالت عنها لباسها الرسميّ تاركة على جلدها الذي بدت عليه بعض التجاعيد قميصا خفيفا شفّافا وقصيرا، أزرق اللون ناعم الملمس... احتضنته من الخلف، ألقت على صدره يديها وطوّقته، استشعر نعومة وليونة وطيبا يفتقده في بيته المملّ... لكنّه مع ذلك صرخ: «شريفة، لماذا كذبت عليّ؟» شيء ما غلبه ليتكلّم، ربّما كان خوفه من خطّة خفيّة، وربّما هو نفح بعض ملامح رجولة خفيّة قديمة صدئة. وإلاّ فكيف يفرّط جمعة الرخيص في لحظة دافئة كهذه قلّما عرفها في حياته، ناهيك عن ثلاثة أشهر من الحرمان والفراق؟ الأشهر الثلاثة الماضية تخاصما وافترقا لأنّ جمعة ماطل في موضوع الزواج والخطبة كثيرا، وقالت له وردة -التي اكتشف الآن أنّها لا تعدو أن تكون شريفة-قالت له بلهجة النساء سيّئات السمعة مدّعيات الشرف المعتادة: «طبعا آن أن تهرب وتتهرّب، فقد شبعت نظرا وتقبيلا وتقليبا وحضنا ولمسا ودفئا ولحسا!!» كلامها ورحيلها وعودتها وشوقها المزعوم وعطرها وحتى شعرها

4 - مثل تونسي يضرب للتعبير عن حال جدل كبير أو عظيم اختلاف حول أمر بين الناس من أجل شيء تافه أو لا قيمة له.

الأحمر، جزء دقيق محسوب من خطّتها... أمّا الآن فهي قلقة وخائفة. مأزق لم تحسب حسابه ولم يحن وقته. فقد كانت تعرف أنّ للأسرار وقتا تُكشف فيه... لكنّه وقت مدروس، وقت محسوب، تعرف متى تلقيه في وجه جمعة... ذلك الوقت الذي يذوب فيه جمعة كسكّر في طراوة تفاصيلها، الوقت الذي يصير فيه عجينا سهل التشكيل عندما يغرق في حكاياتها وتستوطن ذاكرته كأفيون أدمنه لا يفارقه ولا يستطيع منه فكاكا مهما كان ضرره للذّته وتعوّده عليه. أمّا الآن فقد كُشفت قبل أوان الكشف فهي عارية ومفضوحة ومتّهمة. وهذه نقطة التعادل لجمعة بعد أن أخرجته في صورة النذل اللعوب كاذب الوعد فاقد الرجولة والمروءة، ذاك الذي يلهو بأعراض النساء ويستغلّ حبّ امرأة ضعيفة وهبته نفسها ليتركها ويهرب كجبان بعدما أحبّته كالرجال مثلما يُقال بين أهل الرداءة والسذاجة... وعليها الآن أن تلعب أوراقها كلّها لتنجو، عليها أن تفيض بكاءً وذلّة وتدّعي شرفا أُغتصب وحبّا نبت على حواف قلب ميّت يائس... وعليها أن تسدّد سهامها ناحية جمعة. فهو صيدها الثمين وفرصتها الأخيرة لتغدو سيّدة مجتمع محترمة فيما تتوهّم...

«فتّشت حقيبتي؟ أهكذا هي الأخلاق؟» قالت متصنّعة شيئا ليس فيها ولا يملكه جمعة بالطبع، تريد العتاب مدخلا لاستمالة القلب وطلب الصفح تدريجيّا كأفعى تزحف بلا ضجّة تثيرها حرصا على الوصول لغايتها...

«لم يكن التفتيش غايتي... كانت مجرّد صدفة.» قال جمعة مبتلعا الطعم، ومزيحا تهمة ثقيلة على نفسه. قبل أن يضيف بغضب: «كذبت عليّ فلا أنت ثلاثينيّة ولا أنت وردة...»

«بلى أنا وردة التي عرفتها عطوفة رقيقة، أنا وردة التي وهبتك رحيق روحها وحبّها، أنا التي وهبت كلّي إليك جسدا وقلبا وروحا دون أن أضمن شيئا لي... أنا التي تحدّت المجتمع لأجل حبّك يا جمعة. ما شأنك بالأوراق ألم تسمعهم ينادونني بوردة؟ فيم كذبت عليك ألست وردتك الثلاثينيّة الطازجة؟ ما الذي تكون عليه امرأة الثلاثين ولست أنا عليه؟ ما الذي تتقنه امرأة الثلاثين ولا أتقنه؟ خبّرني يا جمعة يا حبيبي الجائع إليّ؟» قالت تريد أكل عقله بما تثيره في نفسه من حبّ وذكرى...

«حسنا، وترمّلك المزعوم يا وردة؟ خبرة وإتقان ثلاثينية أيضا؟!» قال جمعة منساقا وراء لعبة لم يخترها، لكن بدا سعيدا بها، فقد تتيح له سببا للنجاة والهروب حين يغدو ما للبقاء من سبيل... تنحنحت فجأة، فغرت فاها، تراجعت إلى الخلف، جلست على طرف السّرير السفليّ، أحنت رأسها على راحتي يديها، ارتكز مرفقاها على ركبتيها، ثم انفجرت باكية كعادة النساء. ألم يُقل دائما إنّ الدموع سلاح المرأة الأبديّ؟ بكت وشهقت كثيرا وهي تبكي وتقول بصوت غير مفهوم كثيرا: «ما شأنك بالماضي يا جمعة؟ نحن أبناء الحاضر، والحاضر ليس فيه إلاّ أنت...» ثم أضافت دون أن تكفّ عن بكائها لكن بكلام مسموع ومفهوم: «أحبّك يا جمعة ففيم

بحثك في تفاصيلي الموجعة... أريد أن أحضن فيك جمال الحياة الأخضر وأنسى ناري التي اشتعلت في يبسي، أريد أن أنسى بك وفيك وجعي... ألمي، سوئي، بؤسي... تريد أن تعرف من خرز سكّينه فيّ وجعلني امرأة غير لائقة بالسعادة والفستان الأبيض الذي تجرّ أذياله الصبايا؟ من جعلني أجرّ أذيال خيبتي وحشمتي وعاري الأبديّ بينما يرتع هو على هواه بكامل مجده لأنّ الطبيعة سمّته رجلا، ولن يخلع عنه هذا اللقب المشرّف مهما صنع أبدا؟ تريد أن تعرف يا جمعة كبُلهاء مجتمعي؟ اسمع إذن لقصّتي القديمة، اسمع لتفاصيلي الأليمة، في البدء كنت طفلة... مجرّد طفلة تلهو وتلعب، الدنيا في عيني مرآة صافية للسعادة والأنس... أفرح بالأشياء الصغيرة، وآنس بالودّ. حينها ظننت كلّ رجل مثل أبي يحبّني ويحنو عليّ، ويخاف أن تخز شوكة قدمي... ظننت كلّ النساء مثل أمّي، تؤثرني على نفسها ولا تهتمّ في سبيلي لبؤسها... كنت فتاة جميلة مزهرة كما الدنيا، مخضرّة كما الأرض في الربيع، عمري لم يُجاوز الثانية عشر. غير أنّي جميلة مزهرة، فاض جسدي أنوثة وطفولة، فاستدار فيّ ما استدار، وكبر فيّ ما كبر... غير أنّي كنت طفلة بريئة، أحبّ من الكائنات الفراشات، ومن النبات الزهرات... طفلة يا جمعة لا أعدو أن أكون طفلة... وحدث أن عرفته فحوّلني مرّة واحدة إلى امرأة... كان معلّمي وكنت أناديه سيّدي... نظراته نحوي تفيض إعجابا، تتلألأ عيناه وتنفرج أساريره، فأقول هو مثل أبي يحبّني ويقدّر ذكائي وسعيي للتفوّق التعلّميّ... أبذل المجهود إذن ليردّد معلّمي أحسنت واصلي. ليردّد تلك الكلمات المادحة التي تملأني

زهوا وبهجة، ويفيض على كياني العُجب والثقة... حبّ معلّمي يزداد، وثقته بي تكبر، ربّما يرى فيّ نفسه أو حلمه القديم، ربّما هو كأبي ينظرني فتزهر الحياة ويحلم فيّ حلمه المؤجّل، كأن أرتسم في خياله نجاحا وشكرا وثناءً وأنا أجتاز العقبات إلى القمّة، ألم يعلّمونا أنّ المعلّم كما الأب يحبّ في الأبناء الأخلاق والشطارة؟ ألم يعلّمونا أنّه كما الآباء يسعون لنجاحنا ووصولنا إلى برّ النجاة سالمين غير تافهين ولا مشوّهين؟ فكيف لي أن أعرف أنّه بائس دسّ بين زمرة المربّين زورا؟ كيف لي أن أدري أنّ أمراضا أخرى لا نعرفها يخفيها الآباء كما الأمّهات كما الناس عنّا وأنا البريئة الصغيرة... لا أدري من الحقيقة غير باب يفتحه الشيطان ويوصده أبي وأمّي في وجهي لأنّي مازلت صغيرة عن مواضيع الكبار... وها أنا إذن فريسة الشيطان والإهمال... الوحش البشريّ يرتدي ميدعة بيضاء، يندسّ بين الأطهار وتفيض نوبات مرضه الجنونيّ على الأبرياء والبريئات من الأطفال... النظرة المعجبة المقدّرة لم تكن مجرّد تقدير أبويّ بريء... إنّي أفهمها وهي تنقلب موجا هادرا يغرقني، نارا تحرقني، لعابا لزجا عفنا كلعاب الحرباء يبلعني... تلك النظرات المقزّزة وهي تفيض عفونة ونتونة تنزلق من وجهي إلى صدري إلى تفاصيلي المخفيّة، خصوصيّتي الحميميّة جدّا... وحدث أن كنّا وحدنا التهمتني تلك النظرات ثانية وطفا عفنها ثانية... امتدّت يده ليداعب شعري منزلقا إلى جيدي... ارتبكت، هزّتني رعدة وخوف، نظرت في عينيه متسائلة ببراءة عمّا يفعله؟ عن النتيجة وعن المنتهى؟ عن عصا العقوبة التي يحملها في محفظته ليضرب يد كلّ من

يخطأ، سألته عينايْ ببراءة إذا أخطأ القاضي فمن يعاقبه؟ سألته نظراتي إذا انقلب الراعي ذئبا فمن إذن يحمي الخراف من اللصوص؟ لم يرَ في نظراتي التائهة غير الخوف والبراءة، فطفق يتحدّث كما الذئاب... وردة يا وردة فيم خوفك يا جميلة؟ أليس أبوك يلاعبك هكذا ويحنو عليك هكذا إذا ما أعجبته؟ تذكّرت أبي... ارتسم داخلي رجلا حزينا بعيدا، رجوت أن يظهر كأسد يفتقد شبلة من أشباله فينشب أنيابه في الذئب قبل أن يفترس بضعة فؤاده وكبده... رجوت ورجوت ولم يظهر أبدا... كان أسدا عجوزا لا يهتمّ لأحد ولا يغار على أحد... أبي يثق بسيّدي لذلك يرسلني إليه لأتعلّم وحيدة درسا خصوصيّا... وكثيرا ما يفيض دعاءً له لأنّ وردة ابنته تتقدّم سريعا في تحصيلها العلميّ، وتعلو درجاتها المدرسيّة بفضل معلّمها ودروسه الخصوصيّة المجانيّة... من رقبتي انزلقت يده سريعا إلى خصري تداعبه، وهو يبتسم ويقول: «كبرت يا وردة، يا جميلة...» نظرت إلى يده ووقع لمسها عليّ فانتابتني قشعريرة أجدها في نفسي لأوّل مرة، وبالنفس خجل ورفض وإحساس عميق بالعفن والخوف وبالخطر... أحسست أنّي بين يدي ذئب تخفّى في زيّ الرعاة طويلا. وقد حانت فرصته لافتراسي، كأنّما انتظرني ورتّب جيّدا لوقوعي بين يديه فريسة لذيذة وسهلة... وبشعوري الفطريّ، وبحركة لا أدري كثيرا عن جدواها دفعت يده عن خصري فأبعدتها... لم يغضب ولم يبدُ عليه خجل أو شعور ما بالخزي أو الحرج... ذئب صبور أو مريض يغلبه مرضه وسرعان ما يفيق منه... ابتسم، قال ربّما أخطأت فأخطئت فهمي، لم أكن أنوي ما فهمته يا وردة... أنت بمثابة ابنة لي.

شعوري نحوك مثل شعور الأب لا أكثر... لكنّي لا أذكر أنّ أبي لاعبني يوما هكذا... قلت في نفسي، احذري يا وردة فليس من عادة الآباء الانزلاق باللمس إلى الخصر، ليس من عادتهم مداعبة الوجه والجيد والعيون الناعسة، الأب ربّما احتضنك، ربّما قبّلك، ربّما ابتسم وهمس لك بكلام المدح والفخر، لكن ليس بعيون ناعسة ونظرات وقحة تلتهمك... ليس لوقت طويل تذوبين خلاله... احذري يا وردة، احذري من الذئاب التي تضع على جلودها أثواب الطّهر والنزاهة والشدّ على الأيادي والمواساة... تلك الذئاب أخطر عليك من الوحوش مكشوفة الوجه، مفضوحة الفعل... احذري يا وردة احذري، فتلك أحوال على الأنثى أن تحتاط جيّدا بشأنها، وأن تَصُرّ عليها كما تنعقد الصرّة، لا تنخدعي بدور الآباء المحبّين، ولا بلسان يغزل الكلام كما الحرير، ولا بعسل ولا دسم فكم من سمّ دسّ في الدّسم... الانزلاق مرّة واحدة كفيل بتدمير حياتك دفعة واحدة، فاحذري يا وردة...

أخفيت ما جرى عن والدي وعن أمّي، خفت ألّا يصدّقاني، وخفت من المعلّم أن يضربني أو ينقلب فيحطّمني لأجد نفسي في النهاية فتاة على دكّة الرفض، طردت من المدرسة مفضوحة لتجلس في بيت أهلها بلا مستقبل علميّ أو مهنيّ، وبلا عريس أيضا... أصبح حينها صاحبة المعلّم السابق الذي وقعت نقلته درءا للشبهات والأقاويل... الأطفال في زمني ضعاف ومستضعفون... وعدت ثانية وثالثة لدرسي الخصوصيّ المزعوم... جرعة اللين تزداد، وودّ داخلي يكبر ويتّخذ شكلا لا يشبه حبّي لأبي في قلبي... إنّه حبّ من نوع آخر، حبّ

يصنعه الكلام والوعد والوهم... بمخيّلتي الصغيرة أرسم داخلي صورة الرجل لأوّل مرة، والحبّ ميل وبلاء سمح لليد أن تلاعب ثانية وتمتدّ ثانية دون أن يمنعها شيء داخلي مثل رفضي أو إحساسي بالعفن، وأنياب الذئب البشريّ تنشب في الطفلة التي تريد أن تلعب... الخوف يزول والوصايا تتوارى بعيدا كالضوء البعيد لمن يغوص في الظلمة... للمساته شوق ورغبة فقد أحببته كما تحبّ الطفلة صانع ألعابها حتى صرت لعبته... يد الذئب تلامسني، تحرّكني، تشعلني، تعلّمني أسرار أنوثتي وأتكشّف معها على ذاك المخفيّ المؤجّل كشفه... يده الآن تجتاز حواجز الكتان لتلهو وتلعب... تنفلت إلى بطني وخصري وتعلو لتداعب نهدي، ثم ما يكون غير الضياع؟ أتخدّر، أتوه، أسكر، فتنزلق اليد ذاتها إلى الأسفل حيث الفضيحة والجحيم... ثم كان ما كان ممّا لا يخفى... بكيت طويلا وأكثرت في وحدتي عويلا، غير أنّي أخفيت الموضوع جيّدا... أخفيته كجرح قديم أتناساه مع الزمن، وأتناسى ألمه ووقعه في فؤادي وقلبي... من ذا الذي يصدّق وردة؟ وإذا ما صدّقها أحد، فما يكون غير الفضيحة والنكران والهزيمة؟ هل يطال اللوم رجل وهو الذكر الذي لا ينقص منه شيء؟!»

أنهت وردة كلامها وانفتحت على بكاء طويل، نصفه حقيقة ونصفه مصطنع. فلوردة تاريخ طويل يجهله جمعة مع الحب والزوايا والشقق المستأجرة والمستلفة من أصحابها لليلة أو بعض ليلة. وما حكاية المعلّم إلاّ نقطة بداية في بحر لجّي، ربّما لاعبها فقط واستمتع ببعض ما تفيض به أنوثتها على الجوانب النديّة. أمّا من اخترق البوابة المحروسة لقدسيّة

أنوثتها، وفضّ ختمها الإلهي المقدّس فلا تعرفه غير وردة وهو سرّها الحقيقي الذي لم تبح به إلى أحد...

لمّا انفجرت باكية، كان قلب جمعة ينبض ببعض أسف وبعض فرح... ها هي ذي فرصة لإتمام ما استلفنا مفتاح الشقة لأجله... طوّقها بذراعيه واحتضنها، تراجع إلى الخلف ومسح دموعها، إنّه يلعب دور معلّمها القديم، يمسح دموعها، يهوّن عليها، يمسح على خدّها، ثم يقول كسوبرمان أو رجل نبيل استجارت به امرأة ضعيفة: «نجوت يا وردة وبلغت برّ الأمان معي... لننسى الماضي ونحيا حبّنا يا وردة، أنا وحيد أقتحم خريف العمر، وأنت وحيدة مكسورة مهزومة... فهلمّي إليّ يا وردتي النديّة الزكيّة!!»

«سيّدتي، ممكن رقم هاتفك؟» قال الشابّ ثانية ساحبا جمعة من ذكرياته وحكاياته...

«لا، لا، ليس لي هاتف للأسف...» يجيب جمعة بتلعثم راغبا في النجاة من موقف خبر بنفسه بؤسه وعواقبه...

«قولي إنّك امرأة حذرة ولا تثقين بالرجال...» قال الشاب بجرأة، وأتبع قوله قهقهة انزعج لها جمعة غير أنّه كتم غيظه في قلبه.

«لا، لا أخشى الرجال لأنّي قويّة الإيمان، ولا أضعف في وجه الشيطان. ولكن صدّقني فعلا ليس لي رقم هاتف...» قال يريد الخلاص دون أن ينسى لهجته النسائيّة المائلة إلى الغنج...

«ما دام الموضوع هكذا فنعم المرأة أنت... وعموما خذي رقم هاتفي. ربّما عنّ لك الاتصال، أو ربّما احتجتني وأنت الوحيدة المسكينة...» قال الشاب وأوقف سيارته مخرجا من دهاليزها الداخلية الصغيرة ورقة كتب عليها رقم هاتفه وناولها جمعة مبتسما. كانا في تلك الرحلة قد تجاوزا الخطّ الطويل للطريق وتعرّجا نحو حيّ الكرامة حتى صارا على حواف مداخله، وألقى الشاب يده على فخذ جمعة وقال بلهجة إغراء مشيرا بعينيه تجاه بيت ينتصب بابه الحديديّ العريض على ناصية شارع قليل الحركة: «هنا بيتي. إن شئت دعوتك لشرب فنجان قهوة معي... لا تخشي شيئا فبالداخل أمّي، وستفرح كثيرا لو رأتك!!»

«شكرا لك، ليكن ذلك في فرصة أخرى إن شاء الله...» قال جمعة بلهجة اجتهد كثيرا لتشابه لكنة النساء وأصواتهنّ الرقيقة، مزيحا يد الشاب عن فخذه. وفغر الشاب فمه استغرابا حين لمح يد جمعة لأول مرة... يد رجاليّة غليظة ينمو على ظهرها شعر خفيف متفرّق. وامتدّت يد جمعة اليمنى إلى الباب تدفعه وتفتحه، لينزل جمعة ويضيف بلهجة رجاليّة خرجت سهوا: «شكرا أخي، بيت صديقي قريب من هنا... أقصد بيت أمّي!!» وأتبع كلامه قهقهة بعد أن عرف أنّه فُضح أخيرا، والحقيقة أنّه عرف بانكشاف أمره بمجرّد تعرّف الشاب على يده الرجاليّة الغليظة. وراح جمعة يتبختر في لباسه النسائي، والحذاء الأحمر الضيّق يضغط عليه من جديد، بينما كان الشاب ذاهلا ضائعا مصدوما قبل أن يردّد بحيرة وتيه: «يا له من دقبون!!»[5]

5 - كلمة في اللهجة التونسية تعني الرجل المخنث أو الشاذ جنسيا.

6

تعمّد جمعة وهو يغادر الشابّ أن يميل مع أوّل شارع يعترض مسيره المخزي بغية أن ينساه الشاب وينسى أثره وأثر قصّته معه فلا يفتّش وراءه ولا يكون سببا جديدا لمزيد من المتاعب. وتعرّج في مساره ذاك سالكا أزقّة ملتوية، يمشي على استحياء محاولا أن يستقيم قدر المستطاع. يتوارى من الناس كصاحب الجرم الخائف. وكانت الشمس تميل إلى الغروب والناس حوله لا تلاحظه وتتجاهله نتيجة انشغالها بالسير الحثيث سعيا للوصول إلى البيوت، أو سعيا لقضاء الشؤون قبل أن يحلّ الليل. تلك الأزقة قليلة الحركة بطبعها فلا محلاّت تجاريّة ولا مقاهي ولا بنوك. إنّها مكان لا يحتوي غير البيوت العتيقة الصالحة للألفة والسكنى. وبين تلك البيوت يوجد بيت فزّاع، وعلى جمعة المضيّ إلى هناك سريعا. المسار إلى بيت فزّاع يستغرق عشر دقائق وفي تلك الدقائق العشر لم يمنع الانشغال بقضاء الشؤون الصغيرة الأخيرة أو السير حثيثا بتجاهل لِمَا نرى قصد الوصول إلى البيوت حيث الأمان والدفء، لم يمنع كلّ ذلك بعض الفضوليين من النظر إلى جمعة بعين الدهشة والازدراء والتناوب في ردّة أفعالهم تجاه حضوره الفيزيائي الغريب بين الضحك والحيرة والغضب بل وحتى توجيه بعض الكلمات على سبيل المضايقة... تجاهل جمعة ذلك حتى انتهى أخيرا عند عتبة باب بيت فزّاع... طرق

الباب وانتظر على الجمر، ثم طرق ثانية، وثالثة بعد وقت قصير من الانتظار المرّ. ثم رابعة وما من ردّ أو جواب أو فتح...

«يا للكارثة لو لم يكن فزّاع موجودا!» قال جمعة وجلس يائسا على عتبة الباب. في تلك اللحظات كان موقف جمعة عسيرا... لم يعد يفكّر إلّا في ضرورة ظهور فزّاع، «إذا لم يظهر فزّاع فسأبيت هنا حيث البرد والوحشة والخوف.» أضاف وتحسّس فخذيه بحثا عن الجيوب فلم يجد غير رداء مسدل بلا جيوب. وتذكّر أنّه في رحلة الهروب تلك قد ترك كلّ شيء وراءه وفرّ بجلده. ليس عليه غير هذا الجلباب الأسود وسراويل داخليّة... ما أشبه هروبه نحو الحياة بالموت. فعند الموت لا يتسنّى للإنسان غير طرح ذلك الرّداء الأبيض عليه... والواقع أنّ جمعة قد خطر بباله أن يجد هاتفه بأحد تلك الجيوب الوهميّة، وفاته أنّه نسي هاتفه وأوراقه الشخصيّة وسجائره في تلك الجيوب الملعونة الملحقة بسرواله الذي ألقاه وحيدا من دونه في ذلك القبو البائس... في تلك اللحظات عرف جمعة أنّه وحيد وعارٍ... عارٍ من كلّ شيء حتّى هويّته الجنسيّة، فهو الآن أنثى تغري مجتمعا عريضا مريضا بدلالها وأنوثتها وغنجها... أنت عارٍ كالميّت يا جمعة، عارٍ من الحقائق والأوهام والمتع والخداع والأكاذيب، وليس إلّا حقيقة واحدة جرّتك وراء سلطانها، «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة.»[6] أحقّا أنت تستطيع دفع الموت عنك إذا حضر؟ أليس للأجل ساعة لا تتأخر عنك قيد ثانية من الوقت؟ كما علّمك أبوك من قبل إذ حفظت منه الآية التي تقول؛ ولو يؤاخذ

6 - النساء 78

الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابّة ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.[7] ففيم هذه المأساة وهذا العذاب يا جمعة؟ أأنت تستطيع فكاكا مما كتبه الله لك أو عليك؟

واستغرق جمعة في تأمّلاته يراجع نفسه متندّما عمّا يفعله. وبدت له أفعاله حماقة بلا منطق، فليس من المعقول أن يتمكّن به الخوف والهلع، وتجزع نفسه، ويتلبّس عقله بالوساوس لمجرّد سماعه لقول عجوز مخبول يرسل الكلام الخرافيّ لتزجية الوقت وقد غدا في أيّامه الأخيرة...

طيّب يا جمعة، وماذا عن الرجل الذي التقاك وكلّمك بشأن زيارته دون سابق معرفة؟ أمخبول هو الآخر؟! نعم صحيح، أيّ سرّ يحمله هذا الزائر المفترض؟ أمن المرجّح أن يكون هو القاتل الذي تتناقل وسائل الإعلام أخباره حقيقة؟ ولكن يا جمعة يا مخبول، فيم إيمانك بفرضيّة واحدة بينما للحقيقة احتمالات وفرضيّات؟! فمن يكون إن لم يكن قاتلا؟

وهدّه إرهاق التفكير والضّجر فقال مستسلما: «كلّ نفس ذائقة الموت.»[8] وتذكّر أباه فهاجت نفسه وفاضت عيناه دمعا، لم يكن جمعة بارّا ويكفيه خزيا أنّ جثمان أبيه خرج من بيت صهره، وهو الذي تكفّل بمراسم الجنازة كلّها بدلا عن جمعة. فكيف ستكون نهايتك يا جمعة والحالة هذه؟ كيف سيعاملك أولادك إن أنت بلغت من الكبر عتيّا؟ ألم يقل الحكماء إنّ ما

7 – النحل، 61

8 – آل عمران 185

نصنعه مع والدينا يرجع إلينا على أيدي أبنائنا؟ فلك الويل يا جمعة، أيّ بشرى لك غير المهانة؟ وتذكّر أبناءه فهاجت نفسه شوقا، وخطرت بباله أمّه فبكى ثانية وصار عريانا أمام نفسه وأمام شروره...

شاب من التائهين الجدد الذين تلفظهم مدينتنا خارج أسوار تدجينها واحترامها، يمرّ بجمعة ضائعا يلقي الأقدام ويترنّح يمينا ويسارا. الأشياء من حوله تدور وتضيع، يراها فتبدو صورة ضبابيّة تظهر وتختفي ويغيب عنها المعنى... إنّه «فتحي الروج»[9]، أكثر الشباب استهلاكا للقنب الهندي في حيّ الكرامة. مرّ على جمعة الغارق في خيبته ودموعه.

«وعدك وخلاها بيك، ما جاش!!»[10]قال الروج الواقف بجانب جمعة، فرفع رأسه ينظر هذه المصيبة من رماها عليه.

«ساقط وما يجيش راجل... اسم الله على أختي من الدموع !!»[11] أضاف الروج وهو يتمطّط حتى انتهى جالسا إلى جانب جمعة التائه في أمره لا يدري كيف يتصرّف مع هذه المصيبة الجديدة... بينما امتدّت يد الروج إليه بسيجارة، أحسّ بحاجته الأكيدة إليها فلم يجد مجالا لرفضها واعتماد الحيطة كما فعل سابقا، فتناولها منه مزيلا عن وجهه الغطاء الذي يشبه النقاب. وأشار للروج بيده ليناوله قداحة فراح يتحسّس ملابسه ثم أخرجها وأولع بنفسه لجمعة الذي جذب

9 - كلمة معربة حرفيا عن الفرنسية rouge ومعناها الأحمر، وهي ألقاب تسري في تونس بين الشباب كنوع من التندّر بأصحاب البشرة التي تميل إلى الحمرة.

10 - لهجة تونسية تعني: وعدك وأخلف وعده فتركك ولم يأت.

11 - لهجة تونسية تعني: ساقط عديم الرجولة اسم الله عليك يا أختي يحفظك من الدموع

أنفاسها الأولى بلهفة وحرقة... أنفاس عميقة مطوّلة نفثها بعيدا أمامه والشاب المزطول يراقبه في دهشة قبل أن يهتف: «تحيا الحرية... تحيا الحرية، ولا شيء غيرها حيث لم نجنِ غيرها!!» ثم قهقه وامتدّت يده تلفّ خصر جمعة وتداعبه. التفت جمعه يرمقه في دهشة فأضاف الروج: «ماذا لو قصدت بيتي فأكرمك... الروج معروف بحسن ضيافته للبنات المحترمات، وكما ترين فقد تركك حبيبك وحيدة فريسة للبرد والمضايقات والمخاطر...»

استمع جمعة في ذهول وتيه لكلام الروج، ثم أفلت لسانه فجأة وقد ملّ دوره وتنكّره، وانفجر غضبه كأنّما يُلقي في وجه الروج كلّ ما كبته من ثورة وغضب وعنف كان شاب»الميغان» وبوتشا حقيقين بها.

«ماذا ترى؟ هل ترى أنثى؟ هل ترى امرأة ممشوقة القدّ؟» صدع جمعة غاضبا، وأضاف وهو يشير إلى وجهه: «أترى هذه الملامح الغليظة وهذه الأخاديد على الجبهة وقد حفرتها سنواتي الأربعون؟ أترى هذه اللحية الخفيفة؟ ألأنثى هي؟» ومسك بتلابيب الروج يخضّه ويلطمه وهو يردّد: «أفّ لكبتكم، أفّ لعهركم... أيّ نوع من البشر أنتم؟!» كلّ ذلك والروج صامت تائه لا يدري من يخضّه ولا فيم يخضّه. وأفلته جمعة فسقط على الأرض كدمية مسرح أفلتها محرّكها... يستشعر فتحي الروج دورانا وتيها نتيجة سجائر القنب الهنديّ التي دخّنها، غير أنّه لمّا وجد نفسه ملقى على الأرض استشعر بطريقة ما أنّ قوة معادية تهدّد وجوده وتمارس نحوه عنفا هو

أدرى الناس به بصفته يكاد يكون سلعته اليوميّة، فاستقام واقفا يتمايل وقد جذب من بين طياته موسى حادّ الشفرة وأشهره في وجه جمعة، في الوقت الذي بدا فيه شخص فزّاع يأتي مترنّحا ببطء من بعيد. وبخفّة أشاح جمعة بوجهه مفلتا من ضربة محقّقة، وسارع إلى يد الروج يلويها فسقط الموسى بعيدا ودفع جمعة الروج فسقط على وجهه، وانقضّ عليه جمعة يلكمه في حنق وغيظ، قبل أن يستقيم ويركل رأسه بحذائه النسائيّ الأحمر مفقدا إيّاه وعيه. وحينئذ هدأ وكفّ عنه...

«يا لك من امرأة حرّة... لا يليق بهم إلّا هذا، لكن فيم الخصومة أمام بيتي؟» قال فزّاع وقد وصل قربهما ينظرهما بعجب. فالتفت جمعة غير مصدّق بالنجاة والظفر بمحبوبه وقال في لهفة: «ولكن أين أنت يا فزّاع؟! لقد عُذّبت في انتظارك.» وتقدّم نحوه يريد أن يحضنه، فغزت الدهشة ملامح فزاع وتراجع إلى الوراء يمدّ وجهه، وأخذ يدقّق في وجه محدّثه لحظة قبل أن يهتف مستغربا: «من؟ جمعة الباعوضي؟! غير معقول؟ أيّ شيء ألقاك عليّ في هذا الليل؟ وأيّ شيء ألقاك داخل عباءات النّساء؟!»

«قصة طويلة ويا لها من قصة!!» قال جمعة، وارتمى عليه يحضنه.

«هلمّا بنا أوّلا نُزحْ هذه الزبالة من أمام بيتي، فإذا ما أفاق لم يعرف طريق بيتي.» قال فزّاع وانطلق ناحية الشاب المزطول يمسك يديه، فتبعه جمعة يقبض ساقيه، وتشاركا حمله ملقيين به عند مدخل زقاق قريب...

7

ما إن تجاوزا عتبة الباب وسط ضحك فزّاع ووجوم جمعة، حتى بدت على الدّرجات امرأة ممتلئة الجسم بائسة المظهر، تلفّ شعرها النديّ بزيت الزيتون عصابة من قماش رديء صينيّة الصّنع، وعلى الجسم المكتنز شحما ولحما وضغطا وغضبا رداء منزليّ خشن، كان لونه أزرق فاستحال باهتا يميل إلى البياض لقدمه على جلدها، كما اكتسحته بقع تزيّنه من الزيت والمرق والأوساخ لطول ما ارتدته ولكثرة ما أهملته. فهو لا يكاد يفارق جلدها ما دامت في بيتها، ناهيك عن الخروج به مرّات ومرّات وكلّما اقتضى خروجها سرعة. وعلى الرداء حزام تلفّه المرأة ليسند فقرات ظهرها المرهقة، من وطأة تحمّل شحمها الفائض على جنباتها، المائلة إلى الهروب والانزياح عن موقعها في ذاك العمود الفقريّ...

امرأة سمراء يكاد وجهها يضيء، وبالوجه آثار جمال قديم وشباب امّحى أو يكاد تحت وطأة السمنة والضغط والغضب... إنّها امرأة فزّاع المعذّبة!

قالت زوج فزّاع: «لم يبق إلّا هذا! ثم ماذا بعد يا سيّد عمر يا موظّف الحكومة؟ أنتظر عودتك من البار بلهف الزوجات، فتقبل عليّ سكرانَ ترافقك عشيقة من الساموراي!!»،فطأطأ جمعة خجلا، بينما قهقه فزّاع الذي يسترق النظر إلى جمعة يتأمّله، حتّى اختنق...

أضافت المرأة بغضب، بينما كان فزّاع يضحك:

«تضحك يا عمر؟! ألهذه الدرجة انحدرت أخلاقك فغدوت رجلا بلا حياء لا تبالي؟ أم أنّك امتهنتني فلم أعد أساوي في نظرك أكثر من خادمة... طبعا يا عزيزي، ما دمت بلا عمل يدرّ عليّ الدنانير مثلك فماذا أساوي أكثر من خادمة؟ لكن أدنيء أنت لدرجة دخولك عليّ وعشيقتك معك!!»

قال عمر مختنقا وسط ضحكه الهستيري:

«وأين هي هذه العشيقة يا حسناء؟» «أين هي هذه العشيقة؟

-تستبلهني؟[12] أم تظنني سكرانة مثلك؟ هذه التي هي بجانبك، أليست امرأة؟ أليست عشيقة بلا شرف ولا كرامة؟ بعيني رأيتك تعانقها وتقبّلها... لمحتها من النافذة وهي تحضنك... الشوق قد هدّ قلبها... أفّ لها من امرأة رخيصة!!» قالت الزوجة بغضب أكبر ورفعت صوتها، وكان موقف عمر فزّاع زوجها غريبا يثير حنقها، فكلّما زاد غضبها وعلا صوتها زاد ضحكه واستهتاره وكأنّه يستمتع بموجة غضبها وغيرتها...

«متى عانقتها يا زوجتي؟» قال عمر فزاع وسط حياء جمعة واضطرابه، ونار بؤسه التي تأكله من الدّاخل...

قالت المرأة السمينة: «متى عانقتها يا زوجتي؟ نعم... نعم. تظاهر بالبراءة والنقاء يا كلب. عانقتها بعد أن لوت يد الشاب المزطول ولكمته كثيرا حتى أغمي عليه...»

12 - لهجة تونسية معناها أتحسبني بلهاء فتعاملني وفق ذلك؟

«هيّا إذن تقدّمي يا عشيقتي وتواري عن نظر زوجتي الغاضبة قبل أن تقتلنا.» قال عمر آخذا بيد جمعة إلى الغرفة السفليّة...

بيت عمر مكوّن من طابقين، الطابق الأرضي يفتح على فسحة تليها غرفة داخل غرفة، وينتصب حمام على يمين مدخله، بينما يمثّل الطابق العلويّ بيت العائلة الكبير بغرفه الثلاث وصالونه وحمّامه الواسع ومطبخه... الطابق الأرضيّ مناط راحة عمر وخلوته. يرتاح فيه كلّما اختلف مع زوجته وعلا صوتهما وفزع الأبناء، وهو خلوة يُلقي عمر بنفسه فيها كلّما سكر أو رغب في السكر دون حاجة لهرج البار...

ما إن تقدّم الموظّفان الزميلان يريدان الطابق الأرضيّ حتى جنّ جنون المرأة السمينة، فأسرعت نحوهما ما استطاعت، تئنّ تحت وطأة شحمها وتلهث ككلب عطشان. وما هي إلّا دقيقة حتى أخذت تخنق جمعة ترجّه وهي تردّد: «أيّتها العاهرة، أيّ رياح ألقت بك عليّ؟ أيّتها المصيبة الطريّة الرخوة... أظننت «حسناء» بلا شرف فتترك لك زوجها الساقط بكلّ يسر وكأنّها شبح ميّت؟! الليلة أقتلك، فليست «حسناء» تخاف...» ثم أزاحت النّقاب والحجاب تريد شعر العشيقة لتشدّه كما هي عادة النساء في العراك فتوقعها أرضا قبل أن تجرّها خارج الشقّة. ولكن ويا لهول المفاجأة، فقد بدا تحت الحجاب رأس أصلع تنبت على أطرافه بعض الشعرات...

«عشيقة صلعاء!!» قالت حسناء دهشة، وهزّتها المفاجأة فأخذت تتأمّل وجه جمعة بإمعان وهي فاغرة فاها قبل أن

تضيف بتعجّب يخالطه حياؤها: «سيّد جمعة الباعوضي؟! يا ويلي ماذا صنعت!!»

«نعم يا حسناء، إنّه جمعة. العشيقة الصلعاء التي أردت شدّ شعرها...» قال عمر معقّبا قبل أن ينخرط في الضحك من جديد.

«ولكن لماذا أنت في لباس النساء يا سيّد جمعة وقد عهدتك محترما أنيقا؟!» قالت حسناء مستفسرة.

«تلك قصة ويا لها من قصّة! لم أسمعها بعد، ولكنّي أخمّن أنّها عظيمة وجديرة بالسماع والسهر...» قال عمر قبل أن يضيف: «أتتركين ضيفنا على العتبات مهانا ومستجوبا بدل أن تكرميه يا حسناء.»

«يا شؤمي!![13] تفضّل يا سيّد جمعة، تفضّل واعذرنا، فالمفاجأة أذهلتنا وأدخلت في قلوبنا البلبلة...»

13 - لهجة تونسية معناها يا للفضيحة والخجل.

8

المفاجأة تأكل قلب حسناء، وجمعة يروي التفاصيل المضحكة الغريبة، وعمر فزّاع ينقلب ضحكه ذهولا وفزعا وما يلبث الفزع أن يرتدّ ضحكا وسخرية من جديد... وجمعة يمدّ ساقيه مرتاحا، يشعل سيجارة ذهبيّة الطرف وينفث دخانها، فيزفر في النفث همّه ووساوسه وبقايا جحيمه الداخليّ المستعر... هاهو أخيرا آمن ومرتاح أو على الأقلّ ينال هدنة بعد نهار شاقّ لم يخطر على باله... تخلّص جمعة من عباءة النساء ولفافات القماش التي لفّها حول رأسه، ألقى الماء على وجهه وغسل أطرافه، ارتدى بيجامة ناعمة الملمس من بيجامات فزاع... جلس على الكنبة قبالة فزّاع، مكّنتهما حسناء من قهوة سريعا كي يتلهّيا في انتظار استكمال التفاصيل الصغيرة لتقديم العشاء الجاهز في انتظارهما من قبل أن يأتيا... بعد لحظات من الراحة المشتهاة، أقبلت حسناء بطبق العشاء فأكلا الموظّفان قليلا، واعتدلا جالسين، وجلست حسناء إلى جانب زوجها ترقب ضيفها بإمعان، وارتسم في نظراتها فضول يدعوه للتحدّث، غير أنّه لم يقو على الحديث ولم يجد له طاقة إلّا حين سأله فزاع: «خبرني يا سيّد جمعة الآن وقد ارتحت قصّتك الطويلة وتفاصيلك الصغيرة التي ألقتك فجأة في عباءة النساء...»

تنحنح جمعة، مدّ ساقيه، مال بجذعه وقال: «لمّا كان اليوم يوم عطلتي الأسبوعيّة، خرجت مزهوّا إلى المدينة، فرأيت أمرا عجيبا، وصار حالي غريبا، المدينة باهتة، حركتها بائدة، والناس حولي اختفت، حتى لكأنّه أصاب بلدتنا خبت. فلمّا كنت تائها ذاهلا، عن أحوالي ساهيا، باحثا في الأرض عن شاهد، يشرح لي ما عنّي خفي، فإذا أنا بشيطان يبرز لي، يعدني غدا بالزيارة، فصرت في أمره محتارا، ثم قلت مجنون يهذي فحديثه يهوي. فأسقطته من اهتمامي ومضيت أغيّر المزاج أنقع في قهوة وأراقب في السماء سحابة، أتقمّص دور المفكّر على سبيل الدعابة، فإذا أنا بعجوز كأنّه كراكوز، فتطفّل وحكى، وأفسد مزاجي حين روى... ثم التفت مبديا نحوي الأسف والتعاطف والأسى، وحدّثني عن الأخبار زاعما انبعاث قاتل يجوس خلال الديار، فيقتل ويعبث في الأمصار. وعلامته أن يخبر الضحيّة، بموعد زيارته البهيّة. وزعم العجوز أنّ الخبر معلوم، وأنّ كلّ إنسان مهتمّ به مهموم... فلمّا سمعت منه احترت وذكرت خبر المجنون ففزعت. فأسرعت إلى بيتي وفي ظنّي أنّ القاتل يرقبني، وأكل قلبي الوهم فهلعت وفي ملابس النساء تنكّرت، وإلى بيتكم فزعت، فكان كلّ من يراني يحسبني أنثى ذات دلّ وجمال تخفيه الملابس والأسمال...»

سكت جمعة فطفق عمر يضحك ويتلوّى، بينما فغرت حسناء فاها طيلة حديثه وبعده...

«يا لصديقي جمعة... أنت مهووس ومجنون حقيقيّ.» قال عمر وعاد يضحك.

«ما كان لك أن تسير خلف كلام عجوز خرف يا سيّد جمعة.» قالت حسناء بتعاطف وأسف.

«كيف تنعتينه بالخرف وقد جزم لي أن الخبر يسري على شاشات التلفزيون حتى غدا حديث الساعة يا سيّدة حسناء؟» قال جمعة.

«أنا لا أفارق التلفاز، ولم يصادف أن رأيت مثل هذا الخبر عن قاتل يجوس خلال الديار ويطير النوم من الأجفان...» قالت حسناء تريد طمأنة جمعة ودحض فكرته.

«وهل ذهب ضوء عينيك جفاءً يا حسناء؟ إنّك مسلوبة العقل طول الوقت وراء مسلسلات الترك السخيفة حتى صرت لا تفرقين عنها سخفا وبؤسا، فأنّى لك أن تعرفي ما يجري في بلادنا والعالم من أخبار؟» عقّب عمر ثائرا مازجا بين المزح والجدّ، فضحكت حسناء وابتسم جمعة على استحياء...

«الحادية عشرة ليلا، نم مرتاحا يا جمعة وتأكّد أنّ بيت عمر فزّاع حصن للخائفين فلا قتلى ولا لصوص ولا مجرمين...» قال عمر مطمئنا ومازحا، ثم أضاف وهو يضرب على ركبتيه متهيّئا للوقوف: «نم هادئا...» وعندئذ طرق الباب بشدّة فتبادل الجمع نظرات الريبة...

الفصل الثاني

1

النساء كثيرات النسيان، والعجائز الوحيدات مستسلمات مسبّحات مستغفرات. تبدو أمّ نبيهة عجوزا وقورا مهابة الجانب. عند المساء الشتويّ تجلس في رواق منزلها الواسع وتوقد في حضرة جلستها كانونا تضطرم جمراته نارا فتعمّها السكينة والسرور، وينطلق لسانها فتسبّح ربّها. وترنو نظراتها إلى إبريق الشاي تارة والجدران تارة... وعيال جمعة يثيرون بالرواق حولها ضجّة وجلبة فلا تهتمّ ولا تستثار، بل تنشغل بالتسبيح والابتسام. أمّا السيّدة نبيهة فضجرة قلقة...

صحيح أنّها فرحت كثيرا لمّا رأت أمّها، فضحكت وطربت وتربّعت تشاركها شرب الشاي والحديث عن الأيام الخوالي وأحوال الجيران، وطفقت تغتاب وتلوك اللبان كعادة النساء البائسات المفرغات التائهات الطيبات... ثم قامت إلى غرفة المطبخ تنظّمها وتنظّف أوانيها... غير أنّها ما إن انتهت حتى طرق قلبها الضيق والقلق. فقد نسيت في غمرة ضياعها وتيهها وهي تجمع أغراضها الضروريّة من بيتها لتأخذها معها إلى بيت والدتها، نسيت أن تضع بين تلك الأغراض فستان سهرتها الأحمر. ذلك الفستان الذي أغوت جمعة كثيرا من أجل شرائه، ومنّى جمعة المسكين النفس برؤيته على جلدها فيتسامران ويضحكان، غير أنّها لم تُشبع رغبته، رغبة زوجها، بل نادرا ما ارتدته فتجول به أمام خلق كثير، مذيبة بزينتها قلوب رجالٍ

آخرين غير زوجها حين تقام تلك الحفلات الشعبيّة الملأى بالسكارى والحثالة عشاق الأرداف المضغوطة، والنهود البارزة نصف العارية!!هي إذن لم تلبسه في بيتها من أجل زوجها أبدا، فقد كانت تخفيه دائما داخل دولاب ملابسها وتقول هو فستان سهرة فلا يُرتدى إلاّ من أجل مناسبة... وها هي ذي مناسبة. إنّها تعتزم زيارة خالتها عند الغروب... حين وصلت السيدة نبيهة بيت العائلة القديمة، عاجلتها أمّها: «بنت خالتك سعاد تُخطب الليلة، جيّد إذ حضرت فترافقينني...»

«نعم يا أمّي قد عرفت، ولذلك أتيت. أم حسبت أنّ زيارتي بلا سبب؟» قالت نبيهة وضحكت.

«يا لها من أيّام ويا له من زمان، لا تلتقي فيه الفروع بأصولها إلاّ متى كانت مناسبة!!» قالت العجوز ساخرة بمرارة خفيّة، وطفقت تسبّح...

لمّا تذكّرت نبيهة أنّها نسيت فستان سهرتها الأحمر وقد عمّها الضجر والقلق لأجل ذلك، غادرت المطبخ سريعا تمسح يديها بتلك الميدعة الزرقاء الوسخة قبل أن تزيلها لتلقي بها على باب غرفة المطبخ معلّقة... سارعت إلى غرفتها القديمة، ارتدت ثوبا قديما من ثيابها كيفما اتّفق، رشّت عطرها الرخيص، عدّلت سريعا من وضع شعرها الذي تشوّش قليلا، ظهرت إلى الرواق تبحث عن حذائها ذي الكعب المتوسّط، وجدته، لبسته...

«إلى أين يا ابنتي؟» سألتها العجوز في دهشة.

«آه يا أمّي! نسيت فستان السهرة الأحمر، فكيف إذن أمضي معك إلى الحفل دونه؟!» أجابت نبيهة بقهر يسكن قلبها كالسعيد الذي يُنغّص فرحه شغل طارئ...

«نحن قد بلغنا العصر، لم لا تلبسين ثوبا آخر؟» قالت العجوز تريد إثناءها عمّا قرّرت...

«مستحيل... ليس لديّ من ثوب يليق بالسهرة غيره... هل تريدين أن يضحك منّي النسوة؟» قالت نبيهة مصرّة.

«ذلك حقّ يا حبيبتي. لا شغل للنساء من أهل زوج خالتك غير السخرية منّا والتفتيش وراءنا لتحقيرنا... لكن لا تغيبي طويلا، فلا طاقة لي بأبنائك، وها نحن نقترب من الغروب، عليك أن تسارعي لنمضي باكرا ونعود باكرا...»قالت العجوز موصية. أمّا نبيهة فقد غادرتها تقتحم الشارع وتحثّ الخطى ما استطاعت، تريد الوصول سريعا... قطع المسافة بين بيت أمّها وبيت زوجها يستغرق ساعة إلّا ربعا مشيا. ساعة إلاّ ربعا من التهام العيون والتفتيش وراء الأسرار، فليس للمدينة شغل غير الانشغال بمن يذهبون ومن يجيئون، ومادامت نبيهة امرأة فعليها إذن أن تحتمل النظرات الوقحة التي تلتهمها التهاما، ذلك أنّ أولئك المفرغين الضائعين لا شغل لهم غير الجلوس على عتبات الشوارع وعلى كراسي المقاهي العفنة لتلتهم عيونهم الأجساد الغادية والرائحة بنظرات بليدة لا تستحي ولا تشبع ولا تقنع... بعض النظر الخالي من المضايقات والتحرّش لا يضرّ ربّما من كانت تحسن التجاهل والتسامي عن العقول العفنة وهذا ما كانت السيّدة نبيهة الباعوضي تتقنه جيّدا. فهي

المشغولة على الدوام بالأطفال تدفعهم أمامها وتحاذر أن تصيبهم مخاطر الطريق، وهي المهووسة بحوادث خطف العيال وسرقة المال وقطع الطريق وممارسة العنف أو التهديد به من طرف الملفوظين على هامش الحياة والمدينة... يا لها من حياة هنا ويا لها من مدينة يحاصرنا فيها خوفنا الذي غدا أبديّا بعدما تزايد عدد الملفوظين ولم تعطهم الحياة أيّة فرصة لينجوا أو يفلحوا أو يستووا فانقلبوا عفاريت بالليل والنهار يسرقون وينهبون ويبتزّون ويتحايلون ليعيشوا عيشة البؤس والفراغ والتيه والضياع...

حين سلكت السيّدة نبيهة هذا الطريق قريبا من الزوال، سعدت وابتهجت بذلك الخلاء الذي كانت عليه المدينة... كان من حسن حظّها أن شهد الكون ظاهرة كسوف جزئيّ هذا الصباح، ولذلك فقد اختفى الناس جميعا أو يكادون من ساحات المدينة وشوارعها ومقاهيها خوفا من أن تدمي عيونهم الشمس دون أن يلاحظوا... تلك الفكرة الخرافيّة التي تنبني على أصول علميّة، ولكن هيهات أن يفهم هؤلاء أنّ الشمس لا تدمي إلّا عين من يتطلّع إليها متأمّلا. وكان عليهم أن يدركوا إذن أنّهم في مأمن تامٍّ ودائمٍ، هم الذين تعوّدوا الخنوع وطأطأة الرؤوس، ولم يتطلّعوا إلى الشمس أو الأفق أو التغيير أبدا...

ابتهجت السيدة نبيهة لأنّها تحبّ أن تمضي في سرّ وفي ستر بعيدا عن العيون وعن الفضول وعن الحسد وعن البلاهة، وهذا ما تحقّق لها في رحلة ذهابها رغم ما وجدته في نفسها من

وحشة وخوف، فتلك العيون التي تلتهمنا يتبدّى لنا من فرط وهمنا وحاجتنا للأنس بالبشر أنّها تحرسنا أيضا...

في رحلة عودتها إلى بيتها سكنها زهو وابتهاج، فضحكت ليقينها بنجاح خطّتها. ربّما لم يكن جمعة ليثنيها عن الذهاب إلى بيت أهلها، فهو يحبّ أن يختلي بنفسه كلّما سنحت له الفرصة فيرتاح من هرج العيال ويمدّ ساقيه أمام التلفاز مستمتعا بتفاهته، وربّما يمضي وقتا ممتعا رفقة قنينة خمر رديء يجلبها سريعا إلى البيت العائليّ بمناسبة خلوّه من العائلة... ولكنّه قد ينفتح على رجولة شرقيّة مزعومة لا يملك منها عدا حديث عابر وصياح وغضب، وعندما ينفتح على تلك الرجولة فإنّه قد ينغّص حياتها أيّاما طويلة حين تعود رفقة أبنائها الأربعة لأنّها لم تستأذنه في الذهاب، ناهيك عن حضورها المفترض لحفل خطبة بنت خالتها سعاد. ونبيهة الباعوضي امرأة كأغلب النساء في بلادنا، انكفأت من زمان على نفسها، تهتمّ ببيتها وترعى عيالها ثم تنام على خيبة وعلى صبر. لا تبالي بزوج هو إلى الضلال أقرب، يحبّ أن يحيا وحيدا منعزلا مستقلّا، لا تحرّكه مسؤوليّة بيته إلّا لماما... تذكّرت نبيهة أمر الرسالة فضحكت لظنّها بنجاح خطّتها، فهي تعرف أنّ جمعة رجل لحس الخمر رأسه وهو مستعدّ ليصدّق أيّ شيء يُروى له، خاصّة إذا ما تعلّق الأمر بتلك الأمور الحدسيّة الروحانيّة الخفيّة. تلك الأمور التي لا نفهمها كثيرا لكنّها تحرّك الأجواء حولنا وتتحكّم بحياتنا برمّتها... لذلك زعمت نبيهة أنّ شعورا بالوحشة يسكنها كما يسكن عيالها، وأنّ هذا ما دفعها أخيرا إلى الهروب بعيدا وكأنّ بيتها بيت

أشباح... حين استرجعت نبيهة أمر الباب، باب شقّتها. اضطربت واختلط الأمر عليها، فلم تعد تدري إن كانت أحكمت غلق الباب أم تركته مواربا سهل الفتح. فهي تذكر أنّ العيال عيالها قد بلبلوا فكرها وشتّتوا تركيزها حين اضطرّت لأن تسارع وراءهم خوفا عليهم من مصير مجهول، ولذلك فهي لا تذكر شيئا بخصوص ما صنعته مع باب منزلها. غير أنّها تذكّرت أنّها كتبت في رسالتها التي خلّفتها لجمعة أنّها أوصدت الباب جيّدا، وعمّها عندئذ قلق... فكيف تكتب هذا في رسالتها وهي ما تزال داخل سجنها؟!

يخيفها أن ينتبه جمعة لحيلتها، غير أنّها سريعا ما ابتسمت وهي تسارع الخطى في اتّجاه بيتها. ذلك أنّ جمعة المهووس ليس على غاية من التوازن حتى ينتبه لمثل ذلك التفصيل الذي يحتاج تركيزا، وحتى إن انتبه فلن يزيد ذلك الخطّة إلّا نجاحا إذ يردّ جمعة الخطأ الوارد في الرسالة، لا إلى الكذب المفضوح بل إلى الاضطراب والتيه والخوف...

إذ تصل السيّدة نبيهة وتقف على عتبة منزلها لا تدرك أنّ خطّتها لم تنجح نجاحا باهرا فقط، بل زلزلت كيان جمعة وقلبت تفاصيل يومه كلّها بفضل اضطراب زوجته إذ لم تتقن غلق الباب، وبفضل عجوز المقهى ورجل الشارع الغريب، وبفضل دم بوتشا الذي تقاطر إثر حادث...

2

حين دلفت إلى شقّتها كانت الشمس تأفل، تتهيّأ لغيابها كما تغيب الأحلام وتذوي في وطن العجز... أسرعت إلى غرفة النوم تريد البحث عن فستانها، تريد تلك الزاوية المخفيّة من الدولاب... وجدته فسحبته، ألقت به على السرير، ذاك السرير الذي لطالما نامت فوقه كجذع نخلة بلا روح، وكان جمعة زوجها يستلقي جنبها كغراب عجوز، عيناه مفتوحتان تتوهان مع صور التلفاز وزفرة يطلقها بين الحين والحين تنهّدا... هي مع ذلك تحبّه، تحتاجه، يروقها رغم استهتاره ولامبالاته، رغم حماقته، رغم فساده، تحبّه وتأنس به. وتذكر قول أمّها دائما؛ ظلّ رجل ولا ظلّ حائط يا ابنتي...

تذكّرت جمعة فتساءلت؛ إلى أين مضى هذا الأبله يا ترى؟ ولأنّ جمعة كثير الغياب عن منزله، يتحاشى هرج العيال ونقيق زوجته اللائمة المعاتبة الغاضبة كما نقيق الضفادع، يغيب تائها خلف الأحلام والذكريات في حضرة شاي بارد في مقهى موحشة، أو في حضرة قنّينة خمر رديء تحت حائط خربة آيلة للسقوط، منسيّة وبعيدة،منكفئة على وحشتها، فيؤنس جمعة تلك الوحشة متحاشيا أن يراه متطفّلو المدينة فيسخرون ويتندّرون بانحطاط أخلاق وقيم موظّف الحكومة المحترم... فإنّ السيدة نبيهة لم تبالِ كثيرا بسؤالها الإنكاريّ إذ بدت الإجابة معلومة...

غير أنّها اندهشت ودغدغها سؤال وشكّ حين تراءت لها حقيبة جمعة الصغيرة مفتوحة وبجوفها ملابس قليلة ملقيّة بغير نظام... قالت في نفسها: «أاِعتزم سفرا من أجل العمل؟ لكن متى سافر زوجي المخبول من أجل العمل؟ يا لأفلام الشرق التي خرّبت دماغك يا نبيهة!!» استرعى انتباهها اقتصار محتوى تلك الحقيبة على الملابس الداخليّة، فيما بدا لها سروال الدجينز الأزرق ملقيّا بإهمال خارج الحقيبة، يجاوره معطف عجوز قد لا يغني من البرد شيئا... وهي امرأة عانت كثيرا من برود جمعة وإهماله. مع ذلك لم تمنع نفسها من الاحتراق شوقا وغيرة، وهي إذ ترى هذه الحقيبة قليلة المحتويات تنتابها ريبة ولا شكّ في نوايا جمعة وأفعاله... هي تعلم أنّ جمعة خائن تغريه الأرداف المضغوطة والعيون الناعسة، جمعة رخيص يغريه حتى وجه ذابل لامرأة تحسن الغمز، امرأة تتقن قول هيت لك... يكفى أن تلمع عيناها أو تومئ إيماءً خفيفا طفيفا حتى يقفز جمعة إليها هاتفا شبّيك لبّيك التافه بين يديك... ماذا يُنتظر من رجل تافه؟ وماذا ينتظر من منظومة أفرزته تثني على الفاسدين وتعادي الشرفاء غير مسخ مثل جمعة؟!

نبيهة تعرف هذا جيّدا وهي تدرك إذ تذكر عشيقته مجعّدة الجيد مطليّة الوجه حمراء الشعر، تدرك أنّها ضحيّة البؤس والعفن، ضحيّة شيء ما لا تفهمه أوقعها في زوج مثل جمعة... غير أنّها لا تدرك ربّما أنّها جزء بائس من منظومة العفن تلك وأنّها ضحيّة جمعة وجلّاده في الآن نفسه. فهي امرأة بائسة كبؤس العادة في وطنها، لم تصنع شيئا لتملك قلب زوجها

وربّما لم يكن ليعنيها أن تملكه... هي امرأة لم تعرف جمعة إلاّ ساعة خطبتها فألقت بنفسها إليه هروبا من عنوسة وشيكة. وما أزعج العنوسة إذ تطرق بابا مثل بابها هي التي لم يجاوز مستواها التعليميّ الابتدائيّة فلا شهادة تحارب بها أو تقيها غائلة الدهر، ولا صنعة بيدها غير إتقان ما تتقنه ربّات البيوت من غسل ومسح وطبخ، ولا مال يخلّفه أبوها فتحرّكه في التجارة بيعا وشراء واستثمارًا... وهو رجل ألقاه المكتوب والنصيب إليها ليريح عائلتها القديمة من عبئها، وكي يساعدها لتطعيم هذا المجتمع الحزين بعناصر جديدة شابّة أكثر حزنا وأروع بؤسا وأمتع تفاهة... ذلك ما يجمعها بجمعة؛ نقيق على الدوام، إهمال لزينتها وهيئتها ووجه يملأه العبوس، ثم أخيرا عيال أربعة نطعمهم لينتفخوا قبل أن نطلقهم في الشوارع عابثين وماجنين ولاهين، وعند المساء ندعو الله قليلا قبل منامنا كي يصلح حال ذرّيتنا الذين حرصنا على تسميتهم بأسماء زكيّة لا تشبه أسماء بني جيلهم... تلك هي حياة نبيهة مع جمعة وهي تحمد الله أحيانا لأجلها فقد كسبت سترا وعيالا هي التي أوشكت أن تنالها دكّة العنوسة قبل أن تتداركها رحمة المكتوب بزواجها من جمعة...

أكلت الغيرة قلبها، واشتعلت نار الشكّ داخلها وهي تلمس تلك الملابس وتفحصها قبل أن تتنهّد قائلة: «سامح الله أبي.» ذلك أنّ الإنسان في لحظات هزيمته يبحث عن القشّة التي لم تكن لتعني شيئا ليتعلّق بها كالغريق ويتحسّر. وما تتحسّر لأجله السيدة نبيهة ليس بالشيء ذي البال فعلا، فهي تذكر عمار النوتي ذلك النجار الذي أحبّها فرقّ قلبها له سريعا

وبادلته نظرات الهيام والشوق لعشّ تخيّلته عطرا نديّا وبيت لا يفتقر للكماليات... بيت تكون هي ملكته الدائمة بلا منازع. فعمّار النوتي نجار قديم يكسب من صنعته ما يغني النساء عن الشكوى والنقيق كالضفادع... يملك بيته الواسع ولا ينتظر تكرّم الحكومة بمرتّب كلّ آخر شهر بل يكسب بعرق جبينه وتفانيه ما لا يقتطعه البنك ولا يوظّف عليه أداءً مثلما يحصل لجمعة. غير أنّه كان كهلا تطوّح رياح الزمن سنوات عمره ناحية الخمسين، فهو أرمل تعلّق بركابه عيال ثلاثة خلّفتهم له زوجته الأولى قبل أن تدخل على سفرها الأخير الذي ليس منه عودٌ...

تبادلت معه الرسائل الشفويّة حين كانت سعاد الصغيرة ذات الستة عشر عاما مرسال الحب بينهما وواسطة العشق الوفيّة... غير أنّ البنت سعاد، تلك التي تعتزم السيدة نبيهة حضور خطبتها هذه الليلة، لم تكن كتومة ولم تحسن حفظ السرّ، وطفقت تحدّث دائرتها الصغيرة عمّا يجري وتضحك لاعبة ولاهية حتى وصل الخبر أبى نبيهة... تأجّج الغضب داخل قلبه وراح يبحث عن ابنته سائلا أمّها: «أين ابنة الحرام نبيهة؟»

«خرجت وليس من عادتها أن تخرج...» قالت الأمّ حين سألها وهي الغافلة لا تدري شيئا ممّا يجري.

«خرجت وليس من عادتها أن تخرج!!إذن تعوّدي منذ الآن أن تخرجي... تعوّدي أن تري زلزالا يهدّنا وبركانا يحرقنا... فالنعجة أنبتت قرونا وستنطحنا... تعوّدي أن تري رقبتي تتدلّى

إلى صدري حين أطأطأ رأسي خجلا ومهانة...» ولوى الأب غاضبا بكلام الجنون.

«وي وي!!يا لطيف يا رؤوفا بالعباد، سترك يا ربّ... مالك تتحدّث هكذا ومالنبيهة ابنتي؟»

«ابنتك يا للّا النائمة على أذنيك والماء تحتك يجري، ابنتك عاشقة، تحبّ كهلا أرملَ نوتيّا...»

«وي ويوي!!يا فاطر السماوات والأرض... أغثنا يا كريم، ثلاث مصائب في مصيبة واحدة... أيصدر عنك كلّ هذا يا نبيهة العاقلة الرصينة!!الحقها واذبحها قبل أن تلطّخ شرفك بالزبل والعفن!!» قالت الأمّ وقرفصت تمسك رأسها بكلتا يديها من أثر الصدمة... أمّا أبو نبيهة فقد خرج ينفث نار الغضب من أنفه، والعين المحشوّة المضغوطة وسط التّرهّلات والشحم تقدح بنظرات الشرّ والنقمة... خرج يريد النوتيّ الأبله، يريد أن يؤدّبه قبل أن يتفرّغ لابنته الخارجة عن طوع تربيته. ويا للصدفة البغيضة ويا للمفاجأة ويا للمكتوب... حين وصل الوالد الغاضب المحترم، كانت خطوات نبيهة قد أدخلتها محلّ النوتيّ لأول مرّة سابقة أباها ببضع دقائق ليس لها من وزن. ولكنّ تلك الدقائق كانت حاسمة وقاتلة وناسفة...

أرادت نبيهة بذاك اللقاء أن تضع النقاط على الحروف، وتعلم النوتيّ المسكين بموافقتها على الزواج منه، وتدعوه من ثمّة لطرق باب دارهم الكبير كما يليق بالبنات، بنات الأصول، والرجال أولي العزم صادقي النوايا. واعتزمت أن يكون لقاءً وحيدا يتيما لا يليه لقاء آخر إلاّ متى أُوفي بالعهد والمواثيق

وارتفع رأس والدها عاليا لا يعيّره أحد ولا يتندّر بشرفه المهدور زورا أحد... غير أنّها ما إن وقفت في حضرة النوتيّ تحيّيه وتبادله ابتسام الحياء والمجاملات وتشكر له سؤله عن أحوالها وصحّتها كافتتاح روتينيّ لحوار أجراه النوتيّ المسكين معها، ما إن حدث ذلك حتى ظهر شخص كالهامة يسدّ أمام الشمس منافذها عند الباب... كان أبو نبيهة ضخما عريضا جسيما عملاقا، وكانت كنيته في الحيّ الغول. يفتل شاربا طويلا وعلى رأسه شاشيّة يميلها حين يتحدّث بفخر عن جمال عبد الناصر وصدّام حسين والقذافي في المقهى. وكان الناس حوله يسمعون لحكاياته الخرافيّة منتشين ومبهورين بما يردّده من تلك الأساطير التي ينسجها حول من يسمّيهم زعماء العروبة المنسيّة... ولكنّهم لم يكونوا ليهتمّوا بتلك البطولات المزعومة والفنطاسيات الخرافيّة التي ينتشي بها محدّثها، بل كانوا عادة ما يعتريهم الخوف منه ومن شاربه الطويل المفتول، ومن نظراته الحادّة التي تشدّك لما يرويه قصرا... ولم يكن الغول يسمح بمعارضة أو حتى نحنحة قد تعني انصرافا بسيطا عمّا يقوله. ولم يكن يتوانى عن ضرب مستمعيه على أعناقهم على سبيل المزاح كلّما استفسروه عن شيء قد يفهم منه التشكيك في الزعماء، أو كلّما تاه مستمعه منه كأنّه لا يؤمن بما يرويه من حديث حول تلك الأمجاد المزعومة...

التفتت نبيهةفإذا برجل كالنخلة يسدّ الباب بقامته الطويلة. عرفته فاضطربت... ارتجفت وتاهت من نفسها وأوشكت على التهاوي ساقطة أو مغمى عليها من أثر الصدمة غير المنتظرة...

«أبي...» قالت متلعثمة.

«عمّ الغول!!» أردف النوتيّ سريعا، بلهجة تخفي كثيرا من الحرج ومن توقّع الكارثة.

«عمامة تتلهوث عليك يا كلب...[14] تلعب ببناويت الناس يا ساقط... ما كذبش إلي قال الشيب والعيب...[15] أم حسبت أنّ الغول بلا شرف...» ولول الغول غاضبا.

«ربي يسامحك عمّي الغول غير افهم الحكاية بركة...»[16] قال النوتيّ مبيّنا حسن نيّته ومحاولا إنقاذ الموقف...

«وأنت للاّ العاقلة... أتو نوريك التلوعيب كيفاش... تسخايل بوك كبر ما عادش يقد يفشخك ويربّيك!!»[17] قال الغول مخاطبا ابنته وملتفتا نحوها غارسا فيها نظراته الحادّة المرعبة. ثم تقدّم نحوها فصفعها وجذبها من شعرها وطفق يجرّها... صاحت وعوت وبكت. أطلق شعرها وجرّها من ذراعها إلى بيته... ولول في الطريق بكلام كثير على سبيل الوعيد والنقمة والغضب... حدّثها عن كرهه لكلّ نوتي حتى وإن بدا ملاكا. خبّرها أنّ عائلة الجبري لا يطيقون سيرة نوتيّ مهما كانت أخلاقه وصفاته، فما بالك بالنسب؟ وأقسم لها أنّه سيزوّجها لأول طارق باب وإن كان عجوزا في التسعين...

14 - لهجة تونسية معناها عمامة تلتف على وجهك فلا تتنفس يا كلب...

15 - لهجة تونسية معناها تغرّر ببنات الناس يا ساقط. لم يكذب من قال اجتمع الشيب والعيب فكيف يجتمعان؟

16 - سامحك الله عمّي الغول، افهم ما جرى أولا.

17 - وأنت يا من تبدين رصينة وهادئة، سأريك نتيجة استهتارك هذا، أم خلت أنّ أبوك أصابه الكبر فلا يستطيع ضربك وتأديبك ولا يحسن تربيتك من جديد...

حين وصلا بيتهما، ألقى الغول ابنته في حضرة أمّها المقرفصة في ساحة الدار... جلس الغول معيدا ما كان يقوله لابنته على امتداد الطريق...

«تريد أن تتزوّج نوتيّا أرملَ كريها... تريدني أن ألطّخ اسم عائلة الجبري بالنسب مع النوتيين. أولئك الذين لا أخلاق لهم غير التزلّف للحكّام والوشاية بالقوميين... أولئك الذين احتالوا ليسرقوا منّا الوظائف، ثم باعوا أراضيهم بقوارير الخمر الرخيصة... أقسم بربّ الكعبة، والذي اصطفى محمّدا العربيّ الأميّ نبيّا ورسولا لأزوّجنّها لأوّل طارقٍ يطلبها...»

وكان الطارق لسوء حظّك يا نبيهة جمعة!!تتذكّر نبيهة ذلك فتضحك سخرية وتصيبها حسرة. ذلك أنّ جمعة في تلك الفترة، كان قد جال على كلّ البيوت يريد المصاهرة فلم ترض عائلة أن تزوّجه لما هو معروف به من استهتار، ولمعاقرته الدائمة لأنواع الخمر الرخيصة، ولاشتهاره أيضا عند بعض الناس وليس كلّهم بوصفه موظّفا مرتشيا مستعدّا لبيع أمّه من أجل دنانير قليلة... غير أنّ الغول أقسم، ومادام أقسم فهنيئا لك يا جمعة الباعوضي بالآنسة المصون بنت الثلاثين عاما نبيهة الجبري...

3

نظرت نبيهة إلى فستانها وهامت به افتتانا... يا له من فستان يليق بامرأة موظّف تدلّلهُ الحكومة، ويحسد الناس زوجته العائمة في الخير!! وإذا ما وضعت نبيهة الجبري الباعوضي هذا الفستان على جلدها، اشرأبّت الأعناق نحوها فتأمّلتها أعين الرجال إعجابا، وذابت قلوب النساء واحترقت حسدا وغيظا... أهذه نبيهة أمّ الصغار الأربعة؟ والله ما تزال نضرة كأنّها صبيّة عذراء تخضّب الحنّاء يديها في الخدر... ويتأمّلونها فيفتتنون ولا تجد النساء حيلة في مجاراة أناقتها، ولا يجد الرجال حيلة في ردّ بهائها الذي يسحر العيون ويذيب القلوب...

سكنها ذلك التخيّل والزهو الكاذب في غياب زوجها فطفقت إلى المرآة تتأمّل ملامح وجهها وتفاصيل جسدها المائل إلى السمنة، ثم تناولت الفستان تنصبه أمامها لترقبه في المرآة تتخيّله على جلدها حيث لم تلبسه بعد، وإنّما هو القياس الظاهريّ كما هي عادة النساء حين تحتار ويعييها الاختيار بين ملابسها الفخمة... غير أنّ السيدة نبيهة لم تكن من ضمن أولئك النساء اللواتي يعييهنّ البحث والاختيار وتحار أذواقهنّ في ارتداء الأنسب من الفساتين الكثيرة التي يملكنها. فالمسكينة لم تكن تحتكم إلاّإلى فستان واحد بهيّ المنظر، رغم ما بدأ يظهر على ألوانه من انطفاء وبهوت خفيف لا يكاد يلاحظ. فهي حريصة على بهاء ألوانه بقدر

المشقّة التي بذلتها في الحصول عليه واضطرارها إلى تملّق جمعة والابتسام كثيرا في وجهه على سبيل النفاق، والغمز له على سبيل الإغراء، بل ووصل بها الأمر إلى مناداته بكلمة حبيبي... تلك الكلمة المحرّم قولها في مدينتها، وتعتبر نشوزا من المرأة حتى لو نطقت بها في وجه زوجها... اعتادت أن تخفي ذلك الفستان بعناية، وتعامله باحترام كي لا يذهب ألق ألوانه وليونة نسجه ونضارة قماشه...

حين وقفت أمام المرآة فُضحت تلك التجاعيد التي غيّرت بعدُ ملامح وجه نبيهة ومالت بها نحو الذبول، هي المرأة الأربعينيّة عصبيّة المزاج كلّما تكلّمت مع جمعة فلم يفهمها، وكلّما خطر ببالها حماقاته الكثيرة واستهتاره. وبدت تلك الترهّلات التي اكتسحت بعدُ جلدها واضحة للعيان وليس غير هذا الفستان المضغوط يسترها...

إثر ذلك خطر لنبيهة رغم ضيق الوقت المتبقّي أمامها أن تستحمّ... ارتأت أنّها ستكون أنقى وأبهى إذا ما استحمّت، فتغدو خفيفة رشيقة سعيدة. تخطو كأنّما هي تطير انتشاءً، فالليلة ليلة أولى من ليالي العرس المؤجّلة، ليلة الخطبة. والخطبة فرصة نادرة للتنفيس والزهو والرقص واللعب والضحك دون تفكير ودون همّ، هي التي تعاني على الدوام ما يسبّبه لها زوجها جمعة من همّ وغمّ... وإذا ما استحمّت سريعا، استقام أمرها، وأضاء وجهها، وظهر ما أرادت من إبداء زينتها. فحينما يكون الوجه نظيفا، وحين ينتعش جلد الإنسان بالماء والغسل،لمع ما تضع المرأة من زينة على وجهها ومن مساحيق.

وبدا شعرها لامعا خفيفا جميلا إذا ما بعد الاستحمام مشّطته...

في تلك اللحظات التي عاسر فيها جمعة حظّه التّعس للفوز بمقعد داخل سيارة تاكسي، كانت نبيهة تتلهّى زاهية بانسياب الماء الساخن والصابون، تستشعر دفئه ولطفه حين يلامس جسدها كأنّما يشفي تلك الجراح التي أصابت نفسها جرّاء ما عانته من جمعة فانعكست المعاناة أوجاعا حادّة على جسدها...

نجحت نبيهة في إخفاء تلك التجاعيد القليلة بما توافر لها من مساحيق قليلة رخيصة، ولمع وجهها في ضوء الغرفة واحمرّت شفتاها جرّاء تلك الزينة... برزت تضاريس جسدها تحت وقع ضغط ذلك الفستان اليتيم. وبضغط جسدها جيّدا تكون نبيهة قد نجحت في شدّ تلك الترهّلات شدّا مؤقّتا ناجعا وسريعا... سرّحت شعرها، مشّطته، وعادت تتأمّل بهاءها المزعوم. ألقت نظرات تأمّليّة سريعة استعدادا للخروج، استدارت نصف دورة ومالت بجسدها كمغنيات الفيديو كليب، ثم ضحكت ضحكا خفيفا فرحا بجمالها وهيئتها البهيّة الموهومة... تناولت عطرها الرخيص وضغطت على رأس القنينة فخرجت رغوة بيضاء استقرّت على فستانها ثم تحولت سريعا إلى بقعة نديّة أمالت لون الفستان من أحمر إلى لون يميل إلى البنيّ...

قالت نبيهة: «يا للحظّ!أخطأت العطر... هذه قنينة جمعة تُفسد فستاني... يا له من شخص مضجر، حتى أشياءه تسبّب لي المتاعب...» وطفقت تمسح البقعة البنيّة بمنديلها الورقيّ

من على فستانها الأحمر تريد إزالتها... لم تنجح ولو نسبيّا، بل تفتّت المنديل على البقعة وارتسمت قطع بيضاء صغيرة على فستانها، فلعنت حظّها ودعت على جمعة قبل أن تتّجه نحو المطبخ باحثة عن منديل من القماش فتمسح تلك البقعة بالماء... فلمّا يئست من المحاولة، عادت إلى الغرفة فرشّت عطرها النسائيّ، ألقت نظرة أخيرة على جسدها في المرآة، وخطت مضطربة إلى الخارج، معكّرة المزاج، إذ أيقنت أنّ تلك البقعة البنيّة النديّة المبتلّة سترافقها لحفل خطبة سعاد...

4

حين كانت أمام باب بيتها تسوّي هندامها لآخر مرّة قبل أن تسلك رحلة الذهاب من جديد، كانت شمس ذاك اليوم الخريفيّ تأفل، وكان الغيم يغطّي السماء، فحلّ الغروب على الدنيا قبل أوانه. ومال الطقس إلى البرودة فاعتكف الناس في بيوتهم توقّيا من البرد ونزلاته، ولفساد في أمزجتهم حتّم عليهم أن يقبعوا في بيوتهم هانئين بحزنهم وسكونهم. ذلك السكون الذي يحاكي مدينة بلا حياة مثل مقبرة... الناس في هذه المدينة بؤساء لا يستشعرون جمالا ولا فرحا، ولا ينصتون لذلك الزهو الذي تكون عليه الطبيعة في كلّ أوقاتها، لذلك فلا هناء لهم ولا خروج إلاّ متى أشرقت الشمس وعمّ السماء صفاء الزرقة، فعندها يخرجون إلى الأرض كأقوام بدائيّة فيعربدون ويسكرون ويُفسدون ويلهون ويضحكون ويسخرون ويثرثرون ويدخّنون ويلعبون فإذا ما جنّ الليل دخلوا جحورهم وناموا كما تنام وحوش الأرض تعبا من جريها نهارا في البريّة.....

استشعرت السيدة نبيهة بردا يوجع أوصالها ويلفح وجهها وكتفيها العاريتين فيؤذيها... فكّرت أن تعود أدراجها فترتدي معطفا يدفّئها ويبعث في قلبها بعض السلام، غير أنّها تذكّرت بانزعاج خفيف أنّها نسيت معطفها في بيت العائلة القديم، بيت العجوز أمّها كثيرة التسبيح...

إنّ انزعاجها الخفيف لم يكن لأنّها فعليّا بلا معطف يقيها البرد خلال ذاك المسار الطويل نحو بيتها القديم والانعطاف من ثمّة نحو بيت العرس رفقة أمّها، بل لأنّ المعطف الاحتياطيّ، ذلك المعطف القديم المهمل الملقيّ في زاوية ما من زوايا بيتها، هو معطف لا يليق أن تلبسه فتظهر به إلى الشارع والناس. هي التي استحمّت ورشّت العطر وألقت على جسدها فستانا أنيقا أحمر، بهيّ التفاصيل، جيّد القماش، يخفي التجاعيد والترهّلات، يسرّ لونه الناظرين... فستان أحمر مكشوف من جهة الكتفين، مفتوح الصدريّة، ينتهي عند ركبتيها ويضغط تفاصيلها الفوقيّة فيجعلها مثيرة لذيذة أنيقة... فكيف تضع فوق هذا الفستان الذي يجعلها أرستقراطيّة -أو هكذا توهّمت- معطفا قديما شعبيّا انطفأ لونه وذهب بهاؤه؟

حين قرّرت السيدة نبيهة أن تدخل بيتها مجدّدا لارتداء معطفها القديم بشكل مؤقّت، مقنعة نفسها بأنّ الأمر لن يدوم أزيد من ساعة إلاّ ربعا، فلا بأس أن تنعم خلالها بالدفء بدل الارتجاف بردا، مطمئنّة إلى احتجاب الناس في البيوت فلا يرونها ولا يدقّقون في تفاصيلها فيسخرون... حين قرّرت ذلك وهمّت أن تدلف إلى بيتها اخترق ذلك الغروب الكاذب الذي صنعه الغيم صوت رجاليّ مزعج... إنّه صوت رجاليّ، غير أنّه بإمالة أنثويّة وغنّة غير خافية وغير ظاهرة، إنّه صوت جارها العزيز بوتشا...

«مساء الخير يا سيّدة...» قال بوتشا وتنحنح يدير وجهه بينما كان الفضول لمعرفة المرأة يخنقه.

قالت السيدة نبيهة بلهجة تختلط فيها المجاملة بالضجر: «مساء الخير يا جارنا، لماذا تناديني بالسيّدة؟» غير أنّ سؤالها كان عتابا واستفسارا حقيقيّا نبع من داخلها كشيء يغلبها...

«لقد مرّ على رأسي الكثير يا سيّدتي... خلال عمري الطويل رأيت ورأيت ورأيت... رأيت غرائب بعدد شعر رأسي، وعندما يقول بوتشا إنّه رأى فإنّه بالفعل يعني ما يقول، فبوتشا الفقير إلى ربّه، العظيم بين الناس، لا يتكلّم من فراغ... رأيت في حياتي الطويلة الممتدّة على أزيد من نصف قرن أشياءً لا تُصدّق فعلا. الغريب والعجيب والفقير والثري والبخيل والطمّاع والمحتال والمجانين بأصنافهم. رأيت حتى من يطير بغير جناحين، ومن يخطف أسنان الكلاب وهي تجري، ومن يعاند الريح ومن يرضع الغيم، ومن يأكل رزقه من العاصفة... رأيت عجائب يتعب العقل في استيعابها واللسان في وصفها، لكنّي لم أر أغرب ممّا مرّ عليّ هذا اليوم ولا أعجب...»قال بوتشا منفتحا على ثرثرة معهودة، فيما كانت السيدة نبيهة تشتعل من الداخل ضجرا وضيقا كما تضطرم جمرات التنور. فالوقت يمرّ ويضغط وهي تريد أن تدرك أمّها قبل أن يحلّ الظلام على الدنيا وها هو بوتشا ينفتح مثرثرا كصنبور مياه معطوب المفتاح... غير أنّ السيدة نبيهة قالت دون أن تشعر وقد شدّها من حديثه غير المفهوم شيء استشعرت أنّه يهمّها وأنّ المدعو بوتشا يشير له بطريقة ما...

- »ماذا تعني بما تقول يا سيّد بوتشا؟ ما هي المشكلة التي تريد أن تشير إليها؟ وما هي العجائب التي رأيتها في يومك هذا؟»

- «إنّ من أوكد حاجات عصرنا يا سيّدتي، تلك التي تركها الناس وتراجع عنها أكثرهم، هي الثبات على المبدإ... ليس عيبا أن يتغيّر الإنسان، مادام ذاك التغيير لا يضرّه ولا يضرّ غيره أساسا... التغيير في العادات مثلا، التغيير في «اللوك» والمظهر... ليس عيبا بل مطلوب أن نظهر بمظهر جديد يجدّد الحياة داخلنا، ويجدّد صورتنا أمام أنفسنا، فنحيا بطاقة جديدة وروح وليدة... التغيير مطلوب ما لم يمسّ مبادئنا الكبرى وما لم يضرّ بغيرنا. لكن ليس بين عشيّة وضحاها، ليس للحظات قليلة ثم نعود إلى ما كنّا عليه... عندها ربّما يستحسن أن نزور طبيبنا، أو نبتهل إلى الله كي يديم نعمه الخفيّة علينا... فنعم الله الخفيّة هي أعظم من تلك الظاهرة، وهي أعظم من أن يلحظها أغلب الناس... أو نقف أمام مرآتنا سائلين ومتسائلين عن ذاك الذي يجري داخلنا عابثا بعقولنا وسلوكنا...»

حين استمعت السيّدة نبيهة لتلك المقالة الطويلة، اضطربت وضجرت، وارتجفت بردا. لذلك قاطعت السيّد بوتشا قائلة في غضب: «ما المشكلة التي تلوك لسانك حولها ما يصلح لتأليف كتاب؟ ألا ترى أنّي على عجلة من أمري، ولا وقت لديّ أضيعه معك في الثرثرة والفلسفة!!»

قالت ذلك وانطلقت إلى الداخل تبحث عن معطفها القديم، غير أنّ بوتشا صاح يُسمعها قائلا: «المشكلة يا سيدتي أنّ الإنسان بات يغيّر جلده كما تفعل الأفعى... المشكلة يا سيّدة نبيهة أنّك أنت لست أنت!!» ولأنّ نبيهة امرأة فقد التقط

سمعها كلّ الكلام الذي قاله بوتشا، عادت سريعا إليه تضع عليها معطفها القديم، نظرت في وجهه قائلة: «ماذا تريد أن تقول يا جارنا؟ أتهيننني وتسخر منّي ومن هندامي؟»

«حاشا لله أن يسخر بوتشا من الخلق ومظاهرهم...» قال بوتشامتفرّسا في جارته قبل أن يشيح بوجهه عنها سريعا.

قالت مستفسرة: «ماذا تعني إذن بقولك أنت لست أنت؟»

«نعم، أنت لست أنت لأنّي رأيتك تغادرين بيتك قبل أزيد من ساعة تقريبا بمظهر غير هذا المظهر!!»

«رأيتني أنا؟! غير معقول!!» قالت بتعجّبٍ.

صدح في وجهها: «نعم رأيتك وحدّثتك... كنت في صورة غير الصورة، تضعين عليك جلبابا وحجابا أسود، بل إنّك كنت منقّبة الوجه، مخفيّة الملامح والتفاصيل...»

قالت مندهشة تأكل الصدمة قلبها وعقلها: «أنا؟ أنا؟ يا جاري، أنا؟»

قال بوتشا بحزن مصطنع:

«لم تزعجني تلك الصورة، فكلّ إنسان حرّ في أن يرى نفسه في الصورة التي يريدها ما دام لا يؤذي الآخرين... ما أزعجني هو تبدّلك السريع، وهذه الصورة القديمة التي عدت إليها...»

اضطربت و تاهت منه ووضعت يدها على وجهها دهشة... تسمّرت في مكانها لحظة.

عمّ الموقف صمت يشبه السكون في الموسيقى، حرّكت نبيهة يدا مرتعشة، أخرجت هاتفها الجوّال من حقيبتها الصغيرة، اتّصلت بجمعة تريد أن تستفسر وأن تفهم ماجرى... وما يجري ربّما...

قالت باضطراب تُحدّث بوتشا، وتضع على أذنها جوّالها في انتظار ردّ جمعة:

- «غادرت بيتي مع أطفالي عند منتصف النهار، وها أنا أعود لأنفتح على سرّ أو خطرٍ...»

- «تريدين أن تقولي إنّ أنت ليست أنت؟! تعنين أنّي حدّثت امرأة هي ليست السيّدة نبيهة، غير أنّي عاملتها على أساس أنّها السيّدة نبيهة؟ ولكن كيف أقول؟ يا لهذه الورطة ويا للالتباس!! لقد ناديتها باسمك فلم تعترض، بل خاطبتني بوصفها أنت... ماذا نسمّي ذلك يا بوتشا؟ انتحال... ثمّة من انتحل شخصيّتك في غيابك يا سيّدتي...»

«هاتف جمعة مغلق! هل تتصوّر ذلك؟» قالت السيّدة نبيهة وهي تعيد نقّالها إلى الحقيبة بيدها المرتعشة... وأضافت: «ماذا صنع جمعة أو ماذا جرى له؟ ما سرّ هذه المرأة العجيبة؟ وفيم تزور بيتي وفيم تحادثك وفيم تنتحل شخصيّتي؟! ماذا لو سردت لي ما وقع تفصيلا يا جارنا. هذه الأحداث تهدّني، أنا قلقة جدّا حيال ما يحدث...»

قال بوتشا منفتحا من جديد على ثرثرة لا تنتهي، مشكلة بوتشا أنّه كلّما انفتح على الحديث نسي نفسه ونسي الموضوع

الأساسيّ الذي يُنتظر أن يُحدّث فيه، ليتكلّم كلاما بلا فائدة يشبه الفلسفة أو السفسطة:

- «لا تقلقِي يا سيّدتي ولا تنزعجِي حيال ما يجري، فإنّه لا يعدو أن يكون محض مصادفة أو لعبة بلا فائدة... ربّما تكون المرأة مخفيّة الوجه إحدى الهاربات من خطر ما يتهدّدها، فحياتنا باتت شديدة الاضطراب، كثيرة المصائب يا جارتي، وِالْتَبست علينا الأمور فلم يعد بإمكاننا أن نميّز الخبيث من الطيّب. ومن يستطيع أن يميز بينهما غير ربّ الأرض والسماوات؟»

- «يا سيّد بوتشا حدّثني عن المرأة رجاءً، ماذا كانت تفعل أمام بيتي؟ ولأيّ سبب ظننت أنّها أنا هي؟» قاطعته السيّدة نبيهة ضجرة:

صدح جمعة كالذي ينفتح على حقيقة أو يجاهر بسرّ طال كتمانه:

- «ظننتها أنت لأنّها خرجت من بيتك... نعم ها أنا أتذكّر... لقد رأيتها بأمّ عيني تخرج من بيتك!!»

قالت نبيهة مندهشة:

- «رأيتها تخرج من بيتي؟! يا للعجب. ماذا تصنع امرأة غريبة في بيتي؟»

- «هذا سؤال يُفترض أن يصدر عنّي نحوك لا العكس... لكنّي أؤكّد أنّي رأيتها كما ذكرت لك. وتحدّثت معها طويلا... كانت خائفة، حذرة، مضطربة...»

«أيّ سرّ لها يا ترى؟ أتراني نسيت بابي مفتوحا فدخلت بيتي بعدي تريد السرقة؟! أم تراها صديقة جمعة؟ ولِمَ لا؟! جمعة ساقط ويفعلها... سبق أن أمسكته متلبّسا مع الرفيقة حمراء الشعر... لكن ما شأنه بالمنقّبات؟ أتراه ملّ النساء مكشوفة الوجوه؟! ذيل الكلب لا يعتدل...» قالت نبيهة منفتحة على تساؤلات كأنّما تحادث نفسها، ونار الغضب والغيرة تأكل قلبها، وبوتشا تائه في كلامها قبل أن يقاطعها قائلا: «لا تظلمي جاري العزيز جمعة، فقد كانت امرأة وحيدة...»

امرأة وحيدة؟!

نعم وحيدة، وحيدة وذات صوت خشن رديء يشبه أصوات الرجال لولا ميوعة لطّفته.

ميوعة... وحيدة... من أدراك أنّها وحيدة؟ لعلّ عاشق الميوعة يختبئ بالداخل، ينتظر أن تنجو منك وتختفي يا جاري حتى يلحقها فيوصلها... أو ربّما تركها ترحل وحيدة وتدبّر أمرها معك قبل أن تختفي ويمّحي خبرها، ولا يُعاد ذكره بعد أن قضى السيّد جمعة «دون جوان» منها وطره!!

نعم ولِمَ لا؟ كلّ شيء جائز في هذا الزمان...

قال بوتشا ذلك، ثم انفتح على ضحك، قبل أن يستطرد مضربا...

لا،لا. مستحيل أن يحدث ذلك.

ولِمَ الاستحالة؟ ألهذه الدرجة تثق في جارك العزيز جمعة؟ أنا أدرى منك بنذالته، وأقول لك ليس من الممكن فقط بل من المؤكّد...

لا، لا... ليس ثقة بجمعة بل بعيني ونفسي... فبمجرّد مغادرة المرأة التي كنت أظنّها أنت، ناديت زوجتي فظهرت لي وأنا لا أغادر مكاني كحارس خلّفتموه، ثم أمرتها بإزالة آثار الدم من على عتبة بيتكم بالماء والصابون، ولم أهنأ إلا وقد طهّرت زوجتي العتبات تطهيرا. ثم دلفت إلى بيتي أرقب من النافذة ما يجري فلم يخرج أحد ولم يقبل، حتى أقبلت أنت من جديد في صورة غير الصورة ومظهر غير المظهر...

انتظر... انتظر... سمعتك تتكلّم عن الدم، أيّ دم؟

أوهوهو... إنّها قصّة ويا لها من قصّة حصلت هذا الصباح للسيّد بوتشا جاركم!! إذ بينما أنا مستلقٍ أمام جهاز تلفزتي القديم مرتاحا... هل تعرفين يا سيّدتي أنّ جهاز تلفزتي قديم لدرجة يندر معها إيجاد مثيله اليوم، ولكنّ بوتشا يقدّر الآثار القديمة ويعرف قيمتها، ويعرف كيف يحفظها من التلف... ليس صحيحا يا سيّدتي أنّ كلّ جديد ومستحدث هو الأفضل دائما... ها هو ذا تلفازي القديم... إنّه أقدم من زوجتي، دخل بيتي قبل أن تدخله ومع ذلك فهو أفضل صحّة منها... ليس أفضل صحّة من زوجتي فحسب بل أمهر منها أيضا. أعني أن أقول إنّه أفضل من كلّ أجهزة التلفاز المصنّعة حديثا...

بينما كان بوتشا يثرثر بلا فائدة، كانت السيّدة نبيهة تتوه خلف أفكارها، خلف سلسلة من الأفكار والتخمينات تسعى جاهدة لإيجاد رابط بينها، وبينما كانت نار الحيرة والارتياب في أمر جمعة تحرقها من الداخل ثرثر بوتشا فلم تقاطعه ولم تنشغل بما يقول حتى قطع هو أفكارها سائلا: «ما كنت أقول يا سيّدتي؟»

التفتت نحوه، نظرت في عينيه غاضبة. تلعثمت تريد شتمه، تريد تذكّر تفاصيل ثرثرته، لم تهتدِ للتذكّر... «يا عمّ بوتشا، أنت دائما هكذا. تتكلّم كثيرا حتى تنسى... أنا قلقة جدّا حيال جمعة! لا أدري كيف أتصرّف، دعني أذهب ولا حاجة لي بسماع قصّة الدّم!!»

«الدم... يا للفكرة! هو ذاك يا جارتي، كنت أنوي أن أحدّثك بشأن الحادث الذي سبّب لي جرحا مؤلما وخطيرا فسال منه دم أحمر قانٍ يكشف عن أصالة بوتشا وعنصره الرفيع الراقي...» قال بوتشا فاتحا يديه كالذي يفاخر بشيء لا يملكه، وتاه من الموقف برمّته بينما كانت السيدة نبيهة تتجاوزه إلى عتبة الزقاق تحثّ الخطى مبتعدة كأنّها لا تسمعه... انتبه بوتشا والتفت حوله فلم ير السيدة نبيهة تسمعه. اتّجه سالكا الزقاق المؤدّي إلى الشارع الرئيسيّ الطويل. رآها، فحثّ خطاه يكرّ قدمه المصابة بوخز مسمار...

قال بوتشا:

- «سيّدة نبيهة جارتي... إلى أين تمضين وحيدة بلا سند وقد حلّ الغروب أخيرا؟» فتوقّفت والتفتت تنتظر اقترابه منها.

- «لست أدري... ربّما يجدر بي أن أصنع شيئا.»

مثل ماذا؟ إنّك تمضين بلا وجهة واضحة

ربّما أجول على المقاهي أسأل عن جمعة...

المقاهي؟ وكم مقهى ستزورين؟ إنّها أكثر من البيوت في مدينتنا الموحشة... تدخلينها وحدك، فتسمعين سوءًا، وتلقين

مضايقة من الجهلاء، وربّما تتعرّضين لما هو أسوء... ذلك الشيء غير المتوقّع الذي يقع، وأنت بكامل زينتك... ستكونين مثل نحلة تقتحم فجأة عشّ دبابير. وقياسا للمقاهي الكثيرة فإنّك تدخلين أعشاش دبابير حرفيّا... وليتك تصلين إلى نتيجة، فمن يكون جمعة العظيم حتى يعرف رجال المقهى المزطولون اللاعبون اللاهون أخباره الخفيّة؟

فماذا يتعيّن عليّ أن أصنع يا عمّ بوتشا؟ يأكلني قلقي وحيرتي بخصوص جمعة...

ليست الحيرة ولا القلق، بل الغيرة والتوجّس بشأن المرأة المجهولة...

وليكن يا عمّ... أيفترض إذن أن أبقى مكتوفة الأيدي بينما تفتكّ امرأة ساقطة زوجي وتيتّم أبنائي وأبوهم حيّ، وتخرّب بيتي؟

مادمت تعتبرين بوتشا الحكيم عمًّا لك، فاسمعي منه. ماذا لو ارتحت جنب زوجتي بينما أذهب أنا فأحقّق وأتحقّق من أمر جاري العزيز جمعة... وستسلّيك زوجتي بقصّتي الطريفة حول زيارتي هذا الصباح مرغما قريبي المشؤوم!!

قريبك المشؤوم؟! هو ذاك يا عمّ بوتشا... أحسنت.

شكرا لك، فلتتفضّلي إذن بزيارة بيتي ريثما...

بينما نطق بوتشا جملته الأخيرة يريد الاسترسال في الحديث، تحرّكت السيدة نبيهة وتجاوزته. حثّ خطاه من جديد يلاحقها بساق تميل إلى العرج يكرّها...

- «سيّدة نبيهة جارتي، ظننتك اقتنعت بفكرتي... لكن اعلمي والحال هذه أنّ مروءة بوتشا وأخلاقه تمنعانه من السماح لجارته بولوج المقاهي، ومن المضيّ في ليل المدينة وحيدة...» قال بوتشا وهو يسارع يريد أن يدرك جارته.

- «لن ألج أيّ مقهى، فقد اهتديت أخيرا لكلمة سرّ جمعة... لكن لا بأس أن ترافقني...»قالت الجارة دون أن تتوقّف عن المشي السريع ما استطاعت، مدفوعة بنار غيرتها وحيرتها، ساهية عن موعد حفل خطبة سعاد الصغيرة...

سأل بوتشا وقد صار يسير جنبا إلى جنب مع جارته:

«أشكر ثقتك يا جارتي... لكن ما تعنين بكلمة سرّ جمعة؟» «كلمة سرّ جمعة هي الطريق الذي سيوصلنا إليه... ألم تقل أنت إنّك زرت هذا الصباح قريبك البغيض؟»

نعم قلت، وإنّي أعني ما أقول... فبسببه شقّ مسمار صدِئٌ قدمي، وبسببه نزف بوتشا المسكين طويلا...

هو ذاك... لجمعة أيضا قريب بغيض ومشؤوم، يبدو مثل شيطان أو حرباء، وأؤكّد لك أنّه مفتاحه السحريّ...

حسنا إذن أرافقك نحو مفتاح جمعة السحريّ، فننظر ما يكون من الأمر وما يخفي هذا البغيض من الأسرار...

5

خميس الباعوضي، قريب جمعة وصديقه... حين كانت الحياة مزهرة والأيام تضرب موعدا مع الحظّ الوافر، كان أبوه يحوز الأراضي المهملة، يشتريها بأثمانٍ بخسة... الناس هنا حرمت الزرع ونسيت شقّ الأرض بإنشاء مدينتهم على أطلال أراضي المزارع، فطفقوا يبنون البيوت وينشغلون بالكدح طلبا للرزق وطمعوا في أن يتوظّف أبناؤهم فيأكلون خبزا باردا بلا كدح ولا عرقٍ ولا شقِّ أرض ولا مشقّة غرس وحصاد... مستقرّهم من الأرض لم يعد ريفا يُستطاب فيه الحرث وتربية المواشي والشدو مع العصافير فجرا إثر الصلاة... فرحوا بذلك وطفقوا يبنون بيوتهم بالآجر الأحمر والإسمنت ذي القوّة والمتانة بدلا من الحجارة وأكوام الطوب. ولكنّ الآجر يطلب مالا ليُدفع وبنّاءً يشدّ أوصاله إلى جدرانه بالإسمنت المخلوط، والإسمنت المخلوط يطلب رجالا تخلطه وتحمله نحو البنّائين، ولا مال لأهل المدينة الناشئة، وليس إلاّ أراضيهم التي عطّلوها من الحرث والزرع، أو أكيال الأرض الصخريّة التي لا تصلح لزرع ولا مرعى...

في تلك الأيام الجميلة، عهود الغفلة اللذيذة، حيث للفكرة سلطانها. طفق الأهالي يبيعون تقاسيم أراضيهم الفلاحيّة وقد مالت نحو صبغة عقاريّة ناشئة ومرغوبة... كان السبتيّ أبو خميس في تلك الأيام موظّفا محترما بين الأهالي، فهو الحارس

الليليّ لبناية البلديّة، يتقاضى أجر أفندي... ورغم أنّه أجر زهيد لا يساوي أكثر من ربع مرتّب رئيس البلديّة المنتدب، إلّا أنّه قد ميّز مع ذلك السيّد الحارس عن فئة أخرى واسعة ومهمّشة لا تتقاضى أجرا ثابتا، بل تقتات أيّاما وتنام مفلسة أيّاما أخرى...

والواقع أنّ السبتيّ بن خميس، أبو خميس الباعوضي، كان رجلا حكيما. عرف كيف يتحكّم بذلك الأجر ليدير به شؤون حياته دون أن يتورّط في الديون أو الحاجة. بل وتمكّن من التحوّل إلى رجل من رجال المال بفضل أجره الزهيد... كان أبو خميس فلاّحا قديما ماهرا في معرفة المواشي وأنواعها الجيّدة والرديئة، وكان يقول: «الماعز مبارك وهو خير من النعاج لمن أراد رزقا وبركة.»

وكان من دأبه أن يشتري كلّ شهر عنزة أو عنزتين حريصا على تكاثرها، والماعز نوع من المواشي سريع التكاثر... فإذا ما علت أسعار الماعز وازدهرت سوقها باع أبو خميس بعضها واشترى بالمبلغ أرضا... الناس هنا باعوا الأراضي ليبنوا البيوت حين تهيّأ لهم أنّ امتلاك بيت في مدينة ناشئة والتخلّي عن الزراعة كفيل بجعلهم أرستقراطيون «بلْديّة»... [18]وهذا ما كان أبو خميس يفهمه جيّدا ويحبّه، مستغلّا فرصة الأسعار الزهيدة للأراضي، راهن الرجل على شيء لم يفهمه الأهالي إلاّ بعد مرور السنوات الطوال... كان سعر الأرض زهيدا فعلا، لدرجة أنّ أبا خميس كان يكفيه مرتّب شهر فقط لشراء قطعة أرض

18 – طبقة اجتماعيّة في تونس، تتميز بأخلاقها الرفيعة وتعلّمها، والبلديّة هم سكان الحضر القدامى (العاصمة والسواحل) وأغلبهم من أصول عربية وأندلسية.

لا يُدرك بائعها قيمتها. ولكنّ فرحته كانت لمّا يشتري أرضا من عند النوتيين... فهم عرش يفرّط في قطعة الأرض بذكر ماعز يذبحه وقنّينة خمر رديء أحيانا كثيرة. وهذا ما استغلّه أبو خميس جيّدا. استغلّه واستثمره وهنِئ به...

لم ينتبه أحد من الأهالي لخطة أبو خميس، ولا عرفوا بما يدور في ذهنه بشأن تلك الشراءات والأراضي الكثيرة التي حرص على امتلاكها... كان فقط يشتري وينسى الموضوع حتى تجمّعت لديه عقود بيع كثيرة نافذة وتامّة، وكان الناس يتندرون ويسخرون، يضحكون ويلعبون، حول الرجل الذي لا يملك بيتا لائقا مثلهم ولكنّه يكدّس الأراضي على قلبه بلا فائدة، وكان الزمان يتغيّر وأسعار مقاسم الأراضي ترتفع بسرعة جنونيّة فيما هم يضحكون ويسخرون...

حين طلب الناس أرضا للبناء لم يجدوا غير تلك المقاسم التي حازها السبتي، فطفقوا يتنافسون في شرائها منه بأضعاف ثمنها الذي اشتراها به. وكان السبتي حكيما فكان ينشئ العمارات بتلك الأموال، ولم يكن يفرّط في قطعة من أراضيه إلاّ بعد أن يضمن ربحه المضاعف فيها أضعافا كثيرة. وكان يحرص على تعويض كلّ أرض يبيعها بشراء أرض جديدة أقل قيمة من الأولى في انتظار علوّ شأنها الذي به يعلو شأن الرّجال...

وها قد علا شأن أبو خميس فلم يبتئس حتى مات معزّزا مكرّما...

حين قضى أبو خميس نحبه، لم يخلّف وراءه من الأبناء غير خميس وبنتين. ولكنّه خلّف لخميس ما هو أهمّ من

الإخوة في عصرنا. لقد خلّف له عمارات ثلاث، وكثيرا من تقاسيم الأراضي العقاريّة الناشئة... تنازل البنتان لأخيهما كما هي العادة هنا، أنشئ أوّل فرع للبنك بالمدينة الناشئة في تلك الفترة فبني مقرّها فوق إحدى تقاسيم أراض السبتي، ثم دأبوا أن يدفعوا مبلغا محترما لخميس الباعوضي كمعلوم كراء محلّ لم يبتنيه، فيا لحظّ خميس الوافر...

حين نام أبوه نومه الأخير، تخلّص خميس من كلّ المواشي التي خلّفها، تزوّج واعتدل أمره. ومن هذه التي ترفض أن ترتبط بخميّس الباعوضي صاحب الثروة التي لا تنفد والتجارة التي لا تبور؟

لم يعمل خميس أيّ عمل، ولم يفلح في مدرسة ولا تعلّم حرفة تدرّ عليه ما يستره كأبناء الفقراء... بينما يلهو ويلعب، يُطرق بابه ليتسلّم معاليم الكراء الكثيرة، ما يغنيه عن الكدح والعمل والشقاء... وحدهم الفقراء يشقون ليأكل من عرقهم الأسياد والمعافون من ابتلاء الحاجة...

ليس لخميس من صنيع غير معاقرة الخمر الرديء، وقضاء الأيام اللذيذة بالسواحل، يتصيّد فتيات الليل وبائعات الهوى فيفيض عليهنّ ببعض ما رزقه الله من ثروة أبيه الحكيم، ومن عرق الفقراء الذين يكدحون ليدفعوا معاليم استئجار تلك الشقق والبيوت التي ورثها خميس عن أبيه...

زوجة خميس الباعوضي امرأة هادئة مستسلمة، تثور حينا وترضخ أحيانا أخرى... فالمال كثير وليس زوجها بفقير حتى تستوصيه بالدراهم القليلة خيرا فينفقها فيما ينبغي إنفاقه

مقتصدا لا مسرفا ولا مبذّرا كما هي عادة الفقراء. وهي امرأة بسيطة تحفر داخل عقلها عميقا وصايا الأمهات والجدّات؛ ظِلّ رجل ولا ظلّ حائط، ربّ رجل قلبه فحم لكن يأتيني باللحم، لا حقّ لك في عتاب زوجك إلاّ متى جعت... وكانت كلّما عاتبته قال لها ببرود: «ربّ دعاء يقول، وهبك الله دار لا بنيت، ورزق لا سعيت، وزواج لا خذيت...»[19] ثم يلقي الغطاء على وجهه وينام...

لخميس الباعوضي بيت متواضع، اعتاد أن لا يؤجّره تاركا إيّاه لمرحه الخاص ولهوه المعتاد وحيدا أو رفقة أصحاب... وبين أولئك الأصحاب كان جمعة. وقد اعتاد خميس أن يمكّنه من البيت كلّما احتاجه... كلّما رافقت جمعة فتاة ليل أو صديقة صالحة للهو والعبث والنسيان...

الشقة بعيدة تقع على أطراف المدينة الصغيرة المنسيّة، إنّها شقّة لا تُلاحظ ولا تطالها أعين الفضوليين والمتطفّلين كثيرا... حين ترى أضواءها الخافتة من بعيد، إذا ما صادف مرورك غير المنتظر بذاك الشارع البعيد حسبتها عائلة منعزلة ومنكفئة تقيم هناك. غير أنّها كانت شقّة ملعونة للزهو واللعب وللرقص مع الشيطان... كثيرا ما ينسحب جمعة إليها فهي آمنة ومريحة لمن يسلك طريق الشيطان ليختلي بعبثه وبمرحه وبجنونه... هي الشقة التي احتضنت قصّة حبّ جمعة مع وردة، شريفة بنت عبد الكريم الجنحاني، تلك التي ظنّت جمعة طيرا حرّا سهل الوقوع في شباك صيدها فوجدت أنّه طير يطير

19 - مثل في تونس يضرب للتعبير عن الرجل وافر الحظ، ومعناه وهبك الله بيتا لم تبنيه ورزقا لم تسع إليه، وزوجة لم تسعى للزواج بها.

وقد جرّ بقدمه حبلا يشدّه فلا يستطيع منه فكاكا ولا مهربا، واكتشفت فيما اكتشفت أنّها كانت صيده وفريسته اللذيذة التي قبضها لتُشبع جوعه لبعض وقت قبل أن يطير مجدّدا بحثا عن فريسة أخرى...

في مسيرها الطويل إلى خميس الباعوضي، سارت السيدة نبيهة طويلا دون أن تتعب. كان عليها أن تتعرّج داخل تلك «الزنقات»[20] الملتوية الضيّقة بعدما شقّت شارعنا الواسع الطويل، وبوتشا يتبعها كأبله بقدم تكاد تكون عرجاء... ثرثرة بوتشا قصّرت المسار الطويل الذي سلكاه. صحيح أنّ الغيظ الذي سكن قلبها لم يترك فرصة لثرثرة بوتشا بأن تؤنسها، ولم يسمح ذلك الغضب وذاك الضيق لكلمات بوتشا الكثيرة أن تنفذ لعقلها أو قلبها، ولكنّها مع ذلك كانت مرتاحة لتلك الثرثرة ولمرافقة بوتشا لها وهي المرأة التي اضطرّت لتشقّ ليلا طويلا موحشا... أحيانا نأنس بالضجيج والضوضاء والهراء، حين نكون وحيدين يكون عراؤنا مرعبا، حيث نحن في مواجهة خوفنا ووحشتنا وأنانيتنا... إنّ تلك الضوضاء والثرثرة المفرغة من المعنى تستر لعنتنا الأبديّة حيث ضعفنا وفراغنا... إنّها إذن امتلاء كاذب واهم يملأ ذلك الفراغ الموحش...

كان عليهما أن يسيرا لساعة كاملة، كان بوتشا المسكين متعبا. يداري ألمه وإرهاقه خلف مروءته المصطنعة، وليس إلاّ فضوله في المعرفة وتطفّله المحمود هما ما وهبا السيّدة نبيهة أنسا ترجوه كلّ امرأة تسلك الليل وحيدة... السيدة نبيهة لم

20 - الأزقة.

تستشعر تعبا ولا إرهاقا، كانت مدفوعة بغضبها وغيرتها وحيرتها...

- «اعذرني يا عم بوتشا، فقد أرهقتك في موضوع لا دخل لك فيه...»

- «لا عليك يا سيّدة نبيهة جارتي، فبوتشا صاحب المروءة لا يتعب في نجدة الناس، فماذا لو كان هؤلاء الناس جيرانه وأحبابه؟ فالسيّد جمعة...» يقول بوتشا منفتحا على ثرثرة لا تنتهي فتتركه نبيهة ليثرثر دون أن تهتمّ لما يقول أو لما يعنيه، بينما تحثّ الخطى سريعا فيتبعها بوتشا يعرج مجهدا ومجتهدا كأبله...

6

حين فتحت الباب، فغرت السيّدة فوزيّة الباعوضي فمها دهشة. ما الذي يعنيه حضور السيدة نبيهة الباعوضي إلى بيتها رفقة رجل غريب في هذا الليل الخريفيّ؟

«مرحبا، أريد مقابلة السيّد خميس...» عاجلتها بتحيّتها وطلبها الغريب عند دهشتها فانفتح عقلها على التخمين المؤجّل، المختبئ وراء دهشتها...

قالت حائرة: «خيرا... أمن مكروه حلّ بجمعة؟»

كان ذلك التخمين الوحيد الذي اهتدت إليه لتفسّر هذا المجيء المفاجئ وذاك الطلب الذي جاء في غير وقته، ولكنّه التخمين الأهمّ والأنسب لحضور ذلك الرجل الغريب الذي يعرج، برفقة المرأة التي لا تحبّ...

قال بوتشا دون أن يسأله أحد، ولكنّه الفضول يغلب على نفسه فينطلق لسانه رغما عنه:

- «نحن لا ندري شيئا بخصوص جمعة. ولذلك افترضنا أن يكون السيّد خميس على دراية بأمره...»

«قالت فوزيّة تريد الخلاص: خميس ليس موجودا هنا، خرج عند المساء فلم يعد...»

«تلك المرأة الغريبة غادرتني أيضا عند المساء.» قال بوتشا معقّبا مخمّنا تخمينه الغبيّ.

«امرأة؟ تقول امرأة؟ أيّة امرأة؟» استفسرت فوزيّة بلهفة النساء حين ينتابهنّ الشكّ وتأكل قلوبهنّ الغيرة.

«امرأة غريبة عجيبة...» قال بوتشا عازما الانفتاح على ثرثرة قد لا تنتهي، قبل أن تقاطعه السيدة نبيهة مستبطنة ذلك العزم الأبله...

«امرأة زارت منزلي وخرجت منه دون أن يعرفها أحد أو يستقبلها أحد... سرّ تلك المرأة منوط باختفاء جمعة، إذا عرفنا سرّ المرأة عرفنا مكان جمعة...» قالت نبيهة شارحة باختزال.

قالت فوزية وضربت على صدرها: «وربّما مكان خميّس أيضا...»

عقّبت نبيهة: «عليك نور، ذلك تخميني أيضا، فخميس وجمعة وجهان لعملة واحدة...» فضربت فوزيّة صدرها ثانية وولولت بكلام الغضب النسائيّ المجنون. متى كانت امرأة في حياة رجل، خمّنت امرأته تخمين الخيانة ولذلك هتفت فوزية: «الرجال والزمان ما ليهم أمان!!»[21]

«هلمّي إلى السيارة، أعرف أين أجد الثلاثة...»

21 – مثل تونسي.

7

حين كانوا في السيارة استشعر بوتشا دفئا وراحة ومدّ ساقيه في الخلف حامدا ربّه. استوصت السيدة فوزية ابنها البكر بإخوته خيرا، أحكمت غلق الباب، أخرجت السيارة من الجراج، أركبت السيدة نبيهة جنبها وقادت سيارتها وسط الليل. هما الآن حبيبتان متوادّتان، فجرحهما واحد ومصيبتهما واحدة. يحدث للناس أن يجمعهم ذات الشيء الذي اختلفا بشأنه، وأصل الخصومة بين الامرأتين أنّ السيدة نبيهة كثيرة اللوم لجمعة لأجل علاقته الوطيدة بابن عمّه خميس. ولم تكن المشكلة في تلك العلاقة متانتها، بل لأنّ جمعة وخميس لم يُجمعا إلّا على الفساد واللهو، ولم يعمل خميس لجمعة شيئا ينفعه أبدا من وجهة نظر نبيهة. لم يحرّك خميس ساكنا ولم تمتدّ يده إلى جيبه أمام أزمات ابن عمّه جمعة الماليّة والصحيّة الكثيرة حتى اضطرّ لبيع بيته. ذلك البيت الذي تنازل عنه أبوه له قصد الاطمئنان عليه، فما كان منه إلا بيعه لمّا حاصرته الديون الكثيرة والمصاريف العاجلة... باعه واستأجر بيتا غير الذي يسكنه الآن. أمّا أبوه فقد مات كمدا وغيظا نتيجة صنيع ابنه جمعة. أقسم وأتمّ وعده بالقسم بأن لا يسكن مع جمعة في البيت المستأجر، وهكذا مضى إلى بيت ابنته فعاش في ضيافتها وضيافة صهره حتى أذن له الربّ في الرجوع إليه...

تبغض السيدة فوزية سلفتها نبيهة لأنّها كثيرا ما واجهتها كما واجهت خميس بالخصام والعتاب، وكأنّ جمعة ولد صغير يُخشى عليه الضلال والضياع... كما اعتقدت دوما أنّ جمعة هو مهلك خميس زوجها، وعلى العكس تماما من ظنّ نبيهة، فلقد اعتقدت فوزية دائما أنّ جمعة هو من يقود خميس نحو ضلاله وتيهه ذلك الذي ينغّص سعادتها... كما اعتقدت دائما أنّ جمعة رجل فقير ينفق لأجله خميس كثيرا من الدنانير... أمّا الآن فهي،مثل نبيهة،تؤمنان بأنّ طريق الضلال لا يفرّق بين تابع ومتبوع، وأنّهما كلتاهما ضحيّة هذين المفسدين زوجيهما بنفس القدر من الخسران والعذاب...

سألت نبيهة:

- «إلى أين تسيرين بنا يا فوزيّة؟»

- «إلى أين غير ذلك الوكر؟! ذلك البيت الملعون الذي أبى خميس أن يؤجّره كلّما جاءه من يطلبه...» قالت فوزيّة فتذكّرت نبيهة البيت وما كان من أمره، حينئذ تنهّدت وقالت: «آه! ذلك البيت الملعون الذي كاد أن يخرّب بيتي!!»

8

على عتبات الساحة الواسعة أمام البيت تراءت للجمع سيّارة خميس البيجو، تنفّس بوتشا الصعداء وهتف: «هي ذي سيّارة، لعلّها للسيد خميّس...» وكان يقصد أنّه قد أمكنهم أخيرا الوصول إلى شيء ينفع بخصوص جمعة الذي اختفى. واستبطن بوتشا عتابا قاسيا سيلقيه في وجه جاره حالما يلقاه. رغم أنّه يجد في نفسه راحة لاطمئنانه على حال جاره، ولكنّها العادة المجتمعيّة في لزوم العتاب والتقريع والعقاب...

أمّا المرأتان فقد استشاطتا غضبا وغلى الدم في عروقهما كما يقال. كلتاهما خمّن وجود الرجلين معا في جلسة خمريّة لا ينقصها ما يلزم من عربدة وغناء وصخب ورقص نساء ربّما، وهو ما يثير حنقهما أكثر من الباقي...

نزلتا من السيارة سريعا، تقدّمتا تحثّان الخطى نحو الباب فتبعهما بوتشا يعرج بقدمه المصابة. حين اقتربا من الباب سكنتهم دهشة. الباب غير مغلق ولا موارب حتّى، بل مفتوح نصف فتح، يشكّل مع العتبة زاوية حادّة قد تساوي خمسة وأربعين درجة...

«سيّد خميس، هل من أحد هنا فيأذن لنا؟» قال بوتشا طارقا الباب المفتوح، تقدّمت الامرأتان متجاهلتين لباقة بوتشا وسذاجته، بينما قبع بوتشا على العتبات لا يتحرّك...

«للبيوت حرمات، وعلى الإنسان أن يستأذن قبل دخوله بيوت الأغيار... كما قال الله في كتابه العزيز؛»يا أيّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلّكم تذكّرون».[22] وهذا أدب عزيز نسيه الناس فلا يذكره غير أمثال بوتشا، وما أقلّ أمثالي في هذه البلادِ...» قال بوتشا منفتحا على ثرثرة مع نفسه حين تُرك في الخارج وحيدا. غير أنّ صرخة قطعت تلك الثرثرة وجعلته يسارع إلى الداخل يكرّ قدمه المصابة باحثا عن مصدر الصوت متسائلا عن الدواعي، وقد سكنته رهبة وخوف...

في الصالون انفتح بصر بوتشا المسكين على المنظر المريع. خميس الباعوضي وامرأة نصف عارية بلباس شفاف لا يكاد يخفي شيئا، مضرّجان بالدماء وعليهما آثار الطعنات... على الطاولة كؤوس الخمر المملوءة إلى حدود النصف، وصحون الفواكه وبقايا الطعام. والسيدتان نبيهة وفوزية تجثوان على ركبهما باكيتين...

قال بوتشا مخاطبا السيّدتين: «لا تلمس منكما واحدة شيئا... علينا إعلام الشرطة، ثمّة جريمة ههنا وعلى بوتشا أن يتصرّف كما يليق بالرجال...» ولكن بدا وكأنّهما لم تسمعاه... بكتا، انتحبتا، استقامتا، تراجعتا إلى الخلف...

سادت لحظة من الصمت.

أجرى بوتشا اتصاله بالشرطة، وقالت فوزية بلهجة تشبه النحيب: «ذلك حال من يخطو نحو الهاوية.» وقالت نبيهة:

22 - سورة النور، 27

«هذه المرأة أعرفها، لم يكن يجدر بخميس أن يموت معها، وربّما مات بدلا عن غيره...» وأضافت: «قلبي حزين لأجلك يا خميس، قلبي حزين لأجلك يا فوزيّة، إنّها لصدمة موجعة لا أستطيع تحمّلها، لكنّي أبلّغك تعازيّ الحارّة.»

- «أعرف أنّها لحظات مؤلمة موجعة، تذهب باتّزان الإنسان وتفقده صوابه. ولكن ذلك هو حال الدنيا يا سيدتي... فلتصبري صبرا جميلا يليق بالنساء، إنّ الزوج هو ذاك العمود الذي يسند المرأة تماما كما تسند القائمات البيوت، فإذا ما تهاوى تهاوت المرأة وتهاوى البيت كلّه...» انفتح بوتشا على ثرثرة لم تنته إلاّ حين اقتحمت الشرطة ذلك الفضاء الموحش الحزين...

9

في التحقيقات أشار بوتشا إلى المرأة المنقّبة. حاول أن يثرثر فمنعوه، ولكنّه بفضل أسئلتهم الموجّهة قال كلّ شيء وكلّ تفصيل. وروت السيدة فوزية كلّ شيء أيضا، تحدّثت بشأن خميس باكية وسردت تفاصيل أيّام حياته التي يعمّها الاستهتار واللهو والمجون واللامسؤوليّة. قالت إنّها صُدمت بما رأت ولم تكن لتعرف ما جرى لولا زيارة نبيهة غير المتوقّعة. أمّا نبيهة فقد أشارت إلى المرأة المقتولة. قالت إنّها تعرفها جيّدا، إنّها وردة زميلة جمعة. قالت ذلك وسكتت عن الباقي. همّت أن تقول إنّها عشيقة زوجها جمعة صاحب الفضائح، لكنّها تراجعت عن ذلك حفاظا على سمعة زوجها وسمعة بيتها...

«تبدو جريمة من أجل الشرف مبدئيّا ولا مبرّر لهذا القتل الوحشيّ غير الشرف...» قال المحقّق صارفا الثلاثة إلى بيوتهم بضمان محلّ سكناهم.

قبل أن ينصرف الثلاثة مغادرين، ولج رجل إلى مركز الأمن العموميّ وتحدّث سريعا خائفا...

«جئت أقدّم بلاغا، ركب معي هذا المساء رجل ليس برجل... امرأة وليست امرأة إلا بالثياب!!» قال الرجل متلعثما، فاسترعى ذلك اهتمام بوتشا فتوقّف يسمع وينظر ما يكون من الأمر.

«ماذا تريد أن تقول بوضوح؟» سأل المحقّق المكلّف حادسا أنّ البلاغ يهمّ قضيّة خميس.

«كيف أقول... ركب معي في سيارتي هذا المساء رجل، لم يكن رجلا، كان رجل في ثياب امرأة... لنقل إنّه رجل متنكّر في ثياب امرأة منقّبة...» أضاف الرجل مرتبكا.

«امرأة منقّبة؟!» قال بوتشا منتبها لتفصيل ما في ذاكرته.

قال المحقّق مستبطنا بعض خيوط الأحبولة:

«أمتأكّد أنت من أنّه رجل؟ أمتأكّد أنّه رجل متنكّر وليس بامرأة؟»

-طبعا يا سيّدي متأكّد...

ما الذي يجعلك متأكّدا؟

حين نزل من سيارتي رأيت يده الغليظة، كانت يدا كثيفة الشعر إلى حدّ ما...

ذلك ليس شيئا، كثير من النساء تشابه أيديهنّ الرجال، الخشونة والشعر والكفّ المشقّق أحيانا!!

طوال الطريق كانت المرأة الرجل تتحدّث بصوت رجاليّ ولكنة ذكوريّة واضحة، وكان من الواضح أنّ الرجل المتنكّر يبذل مجهودا واضحا ليشابه صوته أصوات النساء...

وماذا أيضا؟

حين نزل كانت مشيته رجاليّة مائعة... يحاول أن يميل كالنساء دون جدوى... بدا شكله مضحكا، وها أنّي أتذكّر

الدليل الدامغ؛ لقد خاطبني بصوته الرجاليّ دون مواربة حين نزل وعرف أنّ أمره افتضح...

ماذا قال لك بالتحديد؟

لا أذكر... ربّما قال شكرا وضحك ساخرا.

قال شكرا ثم ضحك ساخرا؟! الأمر خطير كما توقّعت. أين أنزلته؟

في حيّ الكرامة، قال إنّه يرغب بزيارة والدته، ثم قال صراحة أنا أقصد بيت صديقي...

حيّ الكرامة؟!

سأل المحقّق بوتشا سيّد بوتشا:

- ألم تتحدّث بشأن امرأة منقّبة تثير ريبتك أنت أيضا؟

فأجاب: «نعم يا سيّدي، إنّ ما يقوله هذا الرجل صاحب البلاغ ينطبق تماما مع ما رأيت ولاحظت وعايشت. الصوت المصطنع القبيح المائل إلى الصوت الذكوريّ، المشية المائلة المصطنعة، فلا هي مشي امرأة ولا مشي رجل، التوتر والضيق الذي عاينته في هذا المسخ الذي لا أدري إن كان رجلا أو امرأة... إيه يا سيّدي، أنا قلق جدّا بشأن جاري العزيز جمعة... أخشى أن يكون المسخ مجرما يستهدف الباعوضيين!!»

قام المحقّق من مجلسه غاضبا متحفّزا، يستشعر خطورة الوضع، ويستبطن الخيط الأول للإيقاع بقاتل خميس وصاحبته فيما يظنّ. وقال «سيّد بوتشا، سترافقنا أنت وصاحب البلاغ كي تتعرّفا على هذا الرجل الغريب إذا ما وجدناه ورأيتماه...»

10

لا أحد يدري من أين تأتي طاقة الصبر التي تحلّت بها السيدة فوزيّةالباعوضي، لقد تناست حزنها وفجيعتها وترمّلها المفاجئ لتقود سيارتها خلف الدوريات الأمنية التي انطلقت باتّجاه حيّ الكرامة بحثا عن السرّ. وقالت لرفيقة أحزانها نبيهة وهي تجلس إلى جانبها في السيارة بانتظار التحرّك: «إنّ لهذا الأمر سرّا يجدر بي أن أعرفه قبل أن أتفرّغ لحزني...»

سألت نبيهة بلهفة: «والعيال، عيالك؟»

«للبيت ربّ يحميه. ماذا سيصيبهم أكبر من اليتم؟!»

11

حين وصلوا إلى أعتاب حيّ الكرامة، أشار صاحب البلاغ إلى تلك الأزقّة الملتوية والشوارع الضيّقة. أشار إلى حيث سلك جمعة المسكين عندما فارقه. توقّفت سيارات الشرطة عند المداخل وأعطيت التعليمات بمحاصرة مداخل الحيّ ومخارجه حين بدا ولوج السيارات صعبا داخل تفاصيل الحيّ الملتوية الضيقة، وانطلقت سيارة شرطة واحدة تُجاهد في الدخول والبحث.

حين سارت سيارة فوزية البيجو تريد صاحبتها التقدّم، أوقفتها الشرطة عن المضيّ. حدّثوها أنّ الخطر قائم رغم السكون وأنّهم يواجهون مجرما خطيرا متحوّطا لا يمكن التكهّن بخطّته ولا بقدراته، كما خمّنوا أن تكون وراءه مجموعة مجهولة القدرات تساعده، شعارها التخفّي والعمل في صمت...

تخلّت فوزيّة عن سيارتها، ومضت تتقدّم مشيا على الأقدام فيما انتشر رجال الشرطة الكثيرون يجوسون خلال الديار ويترصّدون حركة الحيّ ما استطاعوا... بينما همست نبيهة لفوزيّة بعيدا عن رجال الشرطة المتحفّزين الحريصين: «ولكن كيف أنسى؟ هنا يقيم عمر فزّاع صديق جمعة... لكن هل يليق بنا إزعاجه في هذا الليل الخريفيّ البارد؟!»

الفصل الثالث

1

حين سُمع ذلك الطرق الشديد على الباب، وتبادل الجمع نظرات الريبة، تقدّم عمر فزّاع بخطوات مرتعشة نحو الباب، تصطكّ ركبتاه خوفا. وتساءل: «أيّ ورطة أدخلتنا في متونها يا سيّد جمعة؟» ثم صدع بصوت عالٍ: «من الطارق؟»

«افتح يا سيّد عمر، أنا جارك مفتاح!!» صدح صوت حذر في الخارج كأنّما يهمس.

«سي مفتاح؟! أيّ شيء رماه عليّ في هذا الليل وهو الرجل المستقيم الذي ينام باكرا ويصحو باكرا؟!» قال عمر يخاطب نفسه وهو يفتح الباب...

«مرحبا، سي مفتاح...» قال عمر، فاقتحمه مفتاح وتجاوزه. أشار له بغلق الباب بوجه مخطوف ولم يصدر عنه صوت.

قال عمر مرتبكا: «ما الخطب يا سيّد مفتاح؟ أنت تخيفني...».

قال مفتاح كمن يهمس: «الشرطة يا سيّد عمر، الشرطة تُحاصر الحيّ كلّه.»

سأل عمر مستغربا بلهفة: «الشرطة؟ ماذا بالأمر؟ عمّ يبحثون؟»

«لست أدري عمّ يبحثون، لكنّي أخمّن أنّهم سيقتحمون البيوت مفتّشين...»

عمّ يفتّشون؟

ليست مدينة فاضلة يا سيّد عمر، هنا أو هناك، في كلّ زاوية يعيش من هو خارج عن القانون وعن الشرع. جئت أحذّرك، كي تتخلّص من أيّ شبهة.

أستغفر الله يا سي مفتاح، أنت رجل تعرف الله، هل تتوقّع أن أخفي في بيتي منكرا؟

ومن يدري يا سي عمر... عندما تفتّش الشرطة يسكننا الخوف، لا ندري ما تخفيه جدران بيوتنا فعليّا... وجب أن تخاف، فلن يرضي الشرطة أن تعود بأيدٍ فارغة.

لا تعمل لا تخاف[23] شكرا لإخبارك إيايّ وتحذيرك يا سيّد مفتاح.

قال عمر ذلك وأشار إلى الباب يريد فتحه، بينما كان الخوف يأكل قلبه فعليّا بشأن جمعة. وحين فتح الباب بقلب قلق ويدين مرتعشتين يريد صرف «مفتاح» كي يتسنّى له معالجة الأمر الذي وقع فيه، ظهرت خلف الباب امرأتان، شاحبتي الوجهين.

قالت إحداهما: «مساء الخير يا سيّد عمر.» بينما انشغلت الثانية ببكائها الصامت ودموعها التي تغلبها.

23 - مثل تونسي معناه مادمت لم أفعل شيئا منكرا فإني لا أخاف.

سأل عمر مستبطنا سؤال السيدة نبيهة بشأن جمعة: «سيّدة نبيهة، خيرا، أيّ شيء رماك عليّ في هذا الليل الخريفيّ؟». استبطن ذلك دون أن يعرف كيف سيجيب. وفي وقت وجيز جدّا قرّر أن ينكر رؤيته لجمعة طيلة اليوم، وقرّر أن يكذب بشأن رجل استجار به كي يحميه من المجهول، المجهول الذي لا يعرفه عمر ولا جمعة. وربّما يبدو من الجيّد إذن عدم إذاعة سرّ جمعة حتى لأقرب الناس إليه خوفا عليه. وهذا ما تمليه مروءة السيد عمر فزّاع كما يظنّ.

قالت السيدة نبيهة، وكانت حيرى: «جئتك بشأن زوجي جمعة.»

قال عمر فزّاع متلعثما: «جمعة... صدي... قي جمعة!!»

«جمعة، ألم تره هذا اليوم؟» سألت السيدة نبيهة بلهفة، فسكت عمر وتاه بحثا عن الجواب.

«اختفى هذا المساء في ظروف يطول شرحها، وشوهدت امرأة غريبة المظهر تخرج من منزلي... لست أدري شيئا بخصوصه منذ ذلك الحين. لم يعد إلى بيته، هاتفه مغلق، وأخباره ضائعة... وابن عمّه خميس...» استفاضت السيدة نبيهة في الحديث تريد المساعدة، تريد أن يطفئ عمر فزاع نار حيرتها ولو بكلمة طيّبة تهوّن خوفها. غير أنّها سكتت والتفتت ناحية فوزيّة التي انفجرت باكية...

سأل عمر والرعب يأكل قلبه مستبطنا شيئا ما نادرا ما يحدث: «ماذا حلّ بخميس الباعوضي؟»

«قتل في ظروف غامضة... وجدناه مضرّجا بالدماء في شقّته!!» قالت السيّدة نبيهة فانتحبت المرأة التي بجانبها. وبينما كانت الصدمة تتيه بعمر وسي مفتاح جاره، صدع صوت من الداخل: «خميس قُتل؟! يا لوعتي على بن عمّي!!»

كان ذلك صوت جمعة. هتف منتحبا وضرب على فخذه كامرأة وتقدّم ناحية الباب والجمع، فذهلت المرأتان واحتارتا لظهور جمعة بينما امتدّت نظرات سي مفتاح يملؤها الفضول تلتهم الضيف التهاما... وأحسّ السيد عمر بالحرج يأكله وحمد الله أنّه لم يكذب في حضرة المرأتين الحزينتين. غير أنّه انتبه أخيرا لسي مفتاح وأزعجه فضوله وعدم امتثاله للمغادرة، فقرّر أن يصرفه قبل تفرّغه لتحمّل المصائب التي حلّت برأسه دون أن يكون له دخل فيها.

«سي مفتاح، مازلت هنا؟ يستحسن أن تعود إلى بيتك.» قال عمر حريصا على لباقة مصطنعة. هو الذي لا يحبّ سي مفتاح ولا يرتاح للقائه، فسي مفتاح رجل تقيّ يصلّي فروضه في المسجد ثم ينام، بينما يسهر عمر في الحانات ويلهو دون أن يركع في يومه ركعة...

«أعذرني يا سيّد عمر، فقد أخذني الفضول لمعرفة قصّة المرأتين رغبة منّي في المساعدة، فكما تعرف أنا رجل صاحب مروءة، وهل من المروءة شيء أكبر من نجدة امرأة ملهوفة وعاجزة؟» قال سي مفتاح ينجي نفسه من الحرج، قبل أن يضيف: «تعازينا الحارّة أيّتها السيّدتان.»

2

حين همّ سي مفتاح بالانصراف، وأشار عمر فزّاع إلى الامرأتين بالدخول إلى بيته قائلا: «تفضّلا...» هجم ثلاثة شبّان نحو بيته وقد أشهروا سكاكينهم، وألقى أحدهم حجرا أصاب السيّد مفتاح في رأسه فشجّه.

صدع شابّ من بين الثلاثة في الجمع: «نريد المرأة الملعونة فأخرجها لنا.» فصرخت المرأتان ودخلتا بيت عمر، وتبعهما مفتاح فزعا،وأوصد عمر فزّاع بيته مرتعبا خائفا لا يكاد ينبجس عقله عن فكرة أو حيلة وليس إلاّ الهروب والاختباء...

3

استمرّت ضجّة في الخارج مزعجة ومخيفة، وتوالى الطرق على باب عمر المسكين، بينما انشغل الجمع في الداخل بتضميد جرح سي مفتاح. وكان جمعة مضطربا يتحسّس داخله خجلا وحرجا أقسى من الموت، هو الذي أزعج صديقه وأفسد ليلته وجلب نحوه مشاكل يعلم الله فقط مرساها ومنتهاها كيف يكون؟

وحيث أنّ الضجّة كانت قاسية فقد أيقظت عيال عمر فنزلوا واستقرّوا على الدرجات والتفّوا حول أنفسهم خائفين ومرتعبين...

قالت حسناء زوج عمر.»لقد ارتعب أطفالي، أيّ مصيبة حلّت على رؤوسنا نحن الغرباء في الحيّ.»

قال جمعة منفتحا على عذاب الضمير والشعور المفاجئ بالذنب: «أنا سبب ما يجري، دعوني أذهب فأقتل أو أضيع، ولأتحمّل وحدي لعنتي وعاقبة خطاي، ولتغفر لي يا عمر يا حبيبي...»

«لا تحمّل نفسك ما لا تطيق يا جمعة، فإنّك صديقي وقد حدث ما حدث. المهم حمايتك وحماية الضيوف، يجيك البلاء يا غافل[24].» قال عمر فزّاع يهوّن على صديقه منفتحا على

24 - مثل تونسي، يشير إلى قضاء الله وأنّه ليس من الضروري ارتكاب حماقات لتحلّ بك مصيبة أو تقع في مشكلة.

مروءة لا يدري هو نفسه أنّها فيه، وليس إلّا ما ران على شخصيّته من عادات مجتمعه الدفينة المنسية بما تقتضيه من مجاملات وإكرام للضيف ونصرة المستغيث بك مهما كان الظرف.

أضاف عمر مخاطبا عياله:

- «لا تخافوا يا أكبادي، لن يقع لكم مكروه ما دام أبوكم حيّا...»

قال جمعة يستجدي حلّا وخلاصا:

- «يُستحسن أن نعلم الشرطة، فلا طاقة لنا بالمنحرفين.»

قالت السيّدة فوزيّة:

- «الشرطة هنا بالفعل، ربّما أقبلت بين فينة وأخرى.» فتبادل الجمع نظرات الريبة وتاهت مشاعرهم وراء شعورهم بالخوف، فلم يدروا ما يقولون أو حتى فيم يفكّرون. بينما تغيّر وجه مفتاح وتبدّل لونه، وسكن قلوب الجمع الرعب حين طفق المنحرفون في الخارج يحاولون كسر الباب أو خلع قفله ما استطاعوا، وصدرت عن النسوة صرخة جماعيّة حين نجحوا في كسره...

سارعت النسوة إلى الداخل موصدات الباب وراءهن، وركض أطفال عمر على الدرجات منتهين إلى غرفة واحدة اختبؤوا بها، وتفرّس المنحرفون في الجمع بحثا عن المرأة فوجدوا أمامهم ثلاثة رجال لا تنبئ ملامحهم عن أيّ أنوثة دفينة.

اتّجه واحد من الثلاثة نحو عمر وأمسك بتلابيبه وصدع في وجهه: «أين المرأة التي أهانت صديقي الروج؟ أخرجها لي وسننصرف بعيدا عنك.»

وحين دفعه عمر شاتما إيّاه لكمه على وجهه فأسقطه، وتقدّم فتحي الروج يريد غرفة النساء... حينها انقلب جمعة إلى مجنون، تحرّك كثور هائج ناحية الروج فأسقطه أرضا وانهال عليه لكمًا... حينها تقدّم منه الاثنان سريعا يريدان نصرة صديقهما وقد همّا بطعن جمعة معا، وفي وقت وجيز لا يكاد يُدرك سارع سي مفتاح إلى الاثنين فدفعهما وقد تهيّئا من جديد لطعنه بالسكينتين، وعندها أخرج سي مفتاح سريعا مسدّسا وأصاب قدم أحدهما بطلقة... تراجع الثاني أمام الخوف وأمام تهديد سي مفتاح، وتلوّى الشاب المصاب متألّما يصرخ لاعنا وشاتما، والتفت عمر فرأى جمعا من الناس يلتفّ برواق بيته الضيّق وفي الخارج... واستقام تائها لا يستطيع تفكيرا ولا يستشعر إحساسا. ثم أقبلت الشرطة فجأة، وحينها فقط عرف سي مفتاح حجم المصيبة التي أوقع نفسه بها...

4

تفرّق الجمع بتدخّل الشرطة، وحمل أصحاب الواقعة جميعا إلى مركز الأمن العموميّ بما في ذلك الأطفال.

قال السيّد عمر ملخّصا الواقعة:

«اقتحموا بيتي وآذوا جاري وضيوفي دون سبب. لا عملت يدّي لا ساقي!![25]»

قال فتحي الروج في التحقيقات: «كنت أريد المرأة التي أهانتني فأؤدّبها!»

«هذه يد المرأة الغليظة!!» قال صاحب سيارة «الميغان» المغفّل.

«هذه يد صديقي وجاري جمعة!!» قال بوتشا محتجّا.

«الآن حصحص الحقّ، وليس أقسى عليّ من موت حبيبي خميس. هذا ما كان من يومي وما عانيته من همّي، فإنّي لما مضيت إلى باحات المدينة كما هي العادة، أرجو من المتع الصغيرة الاستزادة، صادفني ما أنا الآن أرويه ولاقيت ما لاقيت فيه...» فتح جمعة كلامه، مسترسلا في سرد قصّته الغريبة مع يومه المشهود وما كان به موعود...

25 - مثل تونسي.

«تريد أن تقنعني بقصّتك وهوسك وبراءتك؟ تريد أن تقول إنّ اجتماعك بالسي مفتاح كان مجانيّا وعلى وجه الصدفة؟» قال المحقّق بعد أن قهقه طويلا.

«هو ذاك لم أعرف سي مفتاح إلا حين دخل بيت عمر ووقع ما وقع، لكن ما قصّته؟ أهو مطارد مثلي من قاتل مجهول يختار ضحاياه عشوائيّا؟» سأل جمعة مستغربا، مستشعرا أنّ الأحداث معه تتّخذ منعرجا خطيرا غير محمود العواقب...

«تبهلل، تبهلل عليّ!![26]» قال المحقّق وابتسم ولمعت عيناه خبثا كمن يشمت. ثم أضاف: «السي مفتاح حبيّبنا، سنين الله يلعب معنا في الغميضة، على كلّ حال، أتوة تقرّوا الكل كيف يرحلوكم غادي...»[27]

26 - لهجة تونسيّة معناها أنت تتظاهر بالطيبة والسذاجة لتنجي نفسك.

27 - لهجة تونسية معناها: السيد مفتاح حبيبنا، يلعب معنا الغميضة سنوات الله، على كلّ حال سوف تعترفون كلكم هناك حينما يقع ترحيلكم.

5

ما هي قصّة سي مفتاح؟ وما دخل جمعة بها؟ ربّما هو مطارد على ذمّة قضايا أخرى، وربّما هو مشتبه به، وربّما من حظّ جمعة العاثر أن وقع معه واجتمع به في بيت عمر المسكين...

حقّقوا مع الجميع على حدة، ولم تجد السيدة نبيهة فرصة لعتاب زوجها أو سؤاله عمّا يجري. ولم تجد السيّدة فوزيّة وقتا لحزنها وفجيعتها في مقتل زوجها... ساقتها الأحداث المتسارعة وجرت بها إلى ما لا يحمد عقباه كما يجرف ماء النهر الحطب وجذوع الأشجار المقطوعة الجافّة. وهي الآن تتحوّل فجأة إلى جذع شجرة مقطوع سييبس ويجفّ بعيدا منعزلا ووحيدا، فماذا تساوي المرأة بعد وفاة زوجها؟ وقديما قالوا «ظلّ رجل ولا ظلّ حائط!!» وهاهي تنفتح على خيبتها ووحدتها، تنفتح على مسؤوليّة العيال بلا جدار يسندها ولا ظلّ يؤنسها...

حين سألوا جمعة عن شريفة، لم ينكر علاقته بها، ولم ينكر ما حدث بينهما من ألاعيب الوصل والشوق اللذيذة الكثيرة. كما لم يخفِ أنّها كانت تصطاده فاصطادها، وتحدّثت السيدة نبيهة زوجته عن ذلك اللقاء بينهما وتلك الخصومة الطويلة وذاك السبّ وذاك العويل الذي جمع حولهم الجيران والناس ممّا اضطرّ جمعة لاحقا إلى تغيير محلّ سكناه بعيدا عن ألسنة الناس التي لا ترحم ...

وحينما دعيت عائلة شريفة الباكية للتحقيق، اعترف شقيقها فارس سريعا بالجريمة... حكى بحرقة عن تلك المسافة الطويلة التي قطعها داخل نفسه حتى يتمكّن من تقطيع لحمه، حكى عن مأساته ووجيعته وخفقان قلبه كهاملت... حدثهم عن تردّده الطويل وعسر تحمّله لما كتبته الأقدار عليه. خبّرهم أنّ القاتل يلاقي وجعا أقسى من وجع ضحيّته حين يقتل من هو منه، من هو نصف لحمه النتن. ولكن لا حيلة مع الذراع الذي نخره السوس إلاّ قطعه... أمّا قتل خميس فكان أهون عليه من سحق بعوضة، هو الذي دنّس اسم عائلة الجنحاني وجعل سيرتها تتساوى مع الزبالة والنتونة والعفن...

«شريفة أو وردة عشيقة من؟ أليست عشيقة جمعة ففيم مقتل خميس؟» سأل المحقّق كمن يحدّث نفسه فانفتح فارس على الأسرار البعيدة... لا علم لي بجمعة ولا معرفة، خميس هو صاحب أختي من زمن بعيد... من زمن دراستها العليا، ألقى عليها جبّة الودّ وحدّثها طويلا عن الحبّ، حدّثها عن شهامته ورجولته في حين أنّه لم يكن إلاّ ساقطا... حدّثها كثيرا والتفّ حولها كأفعى ووعدها كشيطان يلقي بالوعود الكاذبة، وما يعدهم الشيطان إلاّ غرورا... حدّثها واستمالها فتاهت خلف حكاياته ومروءته وإنفاقاته لأجلها حتى مالت إليه، فلمّا مالت وقعت في شراكه كما يقع الفأر في فم أفعى، وكما تقع الذبابة في شراك عنكبوت... فلمّا قضى منها ما قضى، شبع وملّ فاختفى وتاهت وردة خلف الحكايات البعيدة، وعرفت أنّها ضاعت...

قال المحقّق محدّثا نفسه: «ربّما لم يكن جمعة هذا غير ردّ فعل انتحاريّ أو انتقاميّ بلا فائدة كما هي عادة المرأة المخذولة...»

قال فارس وقد أفلت منه لسانه بلا إرادة: «لو عرفت جمعة هذا قبل الآن لقتلته.»

6

آن للنساء أن يتفرّغن لحزنهنّ وبكائهنّ. عند الساعة الثالثة صباحا، أفرج عن السيدات فوزية ونبيهة وحسناء بضمان محلّ سكناهم. أمّا الرجال فلم ينجُ منهم غير بوتشا وصاحب الميغان، أفرج على الاثنين مع بقائهما على ذمّة المحكمة للشهادة، فيما أودع جمعة وعمر فزّاع وسي مفتاح وفارس شقيق شريفة والمنحرفون الثلاثة الحبس. حينما يطلّ الصباح سيتمّ ترحيلهم إلى العاصمة من أجل تحقيق جدّي وشامل وناجع... تحقيق أكبر يهمّ القتل العمد والشرف وانتحال شخصيّة وحيازة سلاح دون رخصة.

قال المحقّق لسي مفتاح: «هذه المرة وقعت يا صديقي الذي دوّخني بحيطته... هذه المرّة أنت متلبّس فلا مال يخرجك ولا نفوذ ينفعك، وربّما وقع معك التنظيم كلّه... المقرّ وأفراد العصابة والجريمة والسلاح...»

7

عند الساعة الرابعة حينما كان الجميع يغطّ في نوم ثقيل، تسلّل شبح رجل إلى فراش جمعة، وضع يده على فمه كي يمنعه من الصياح... استفاق جمعة فجأة، رانت على قلبه صدمة وخوف، ارتعش كالمحتضر، لم يستطع أن يصنع حركة أكبر من ذلك...

«أتعبتني يا سيّد جمعة وجعلتني أجول خلفك من مكان إلى مكان حتى انتهيت إلى هنا من أجل جريمة لم أرتكبها...» همس الشبح في وجهه وابتسم في برود، ثم شرع يخنقه ويسدّ منافذ تنفّسه بيده اليمنى...

في مواجهة الموت ينسى جمعة كلّ شيء وربّما يتذكّر كلّ شيء... يريد جمعة أن يحيا ويستمرّ، أن يطرد الكابوس عن جسده ويستقيم، يريد العودة إلى حياته، إلى تفاصيله الصغيرة، وربّما يريد أن يصلّي بحرقة صلاته الأخيرة لكنّه على غير المتوقّع يستسلم بلا مبالاة، بلا مبالاة فاقدا وعيه ومتحوّلا إلى جيفة...

8

في المقهى الذي جلس جمعة على أحد كراسيه بالأمس، يقبل العجوز المشؤوم ثانية، يتوكّأ على عصا، وليس بغريب أن يتوكّأ عجوز على عصا. يجلس في ركنه، يفتح صحيفته، يمزّ من شيشته كعادته، ينفث دخانه ويقول كمن يخاطب نفسه: «ربّما مات من أجل الشرف وربّما خنقه سي مفتاح خوفا من أن يفضح أسراره في الصباح، وربّما وُعِدَ في الأمس بالزيارة... من يدري؟ ولكنّ دوائر الشرطة ستقول إنّه مجرّد حادث أو موت فجائيّ...»

-تمّت- تأليف من فيفري 2020 إلى الرابع من ماي 2021، الموافق لـ 22 رمضان 1442، نحو الساعة الثالثة والنصف فجرا...